جغرافية المسعودى بين النظرية والواقع

من الأدب الجغرافى فى التراث العربى

دكتور عبد الفتاح محمد وهيبه
أستاذ غير متفرغ بقسم الجغرافية
جامعة الإسكندرية

١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م

توزيع منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

توزيع منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه
٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

جغرافية المسعودى بين النظرية والواقع

من الأدب الجغرافى فى التراث العربى

دكتور عبد الفتاح محمد وهيبه
أستاذ غير متفرغ بقسم الجغرافية
جامعة الإسكندرية

١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م

توزيع المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل انظروا ماذا فى السموات والأرض »

صدق الله العظيم

الإهـــداء

إلى المثقفين العرب

تمهيـــد

هذه دراسة متعمقة تعرض بالبحث والتقويم للأدب الجغراف الذى ضمنه المسعودى كتابية اللذين انتهيا إلينا وهما : « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » . ويستند اختيارنا لهذا العالم الرحالة إلى أنه أكبر شخصيات النصف الأول من القرن الرابع للهجرة ، تمثلا لثقافة هذا العصر الزاهر وإحاطة بها فى وجوهها المختلفة .

وقد ضرب المسعودى بسهم وافر فى شتى ميادين المعرفة وخلف لنا تراثا قيما . ومن بين ما خلف لنا أدب رحلاته يسبقه عرض تقليدى لأدب جغرافى نظرى يتصل بالأفلاك والنجوم وصفات كوكب الأرض . وأدب الرحلات هو ما تستمد منه الجغرافية واقعيتها ، وبغير الرحلة لا تعبر الجغرافية عن الحقيقة . بيد أنه ينبغى أن نفرق بين الأدب الجغرافى الذى تركه لنا جغرافيون محترفون وتلك المعارف الجغرافية التى خلفها لنا الرحالون . فبينما يقوم الجغرافى المحترف برسم صورة كاملة عن المنطقة موضع الدراسة بعد أن يسأل ويستقصى ويحقق ، يكتفى الرحالة بنقل ما يشاهده فتأتى الصورة التى يرسمها جزئية ولكنها ثمينة وموحية . وكثيرا ما يزيد من ثرائها إضافة شىء من التاريخ أو من السياسة أو من عادات الشعوب تعرض فى أسلوب قصصى بديع ، وهذا ما اتصفت به مشاهد رحلات هذا العالم الأديب .

وتنقسم الدراسة إلى قسمين رئيسيين تسبقهما نظرة عامة تعرض للأدب الجغرافى الذى تعرف إليه المسعودى فى زمانه ثم تتبعها ترجمة له . ويعالج القسم الأول أدبه الجغرافى النظرى الذى نقله عن ترجمات عربية لمصنفات اليونان والهند والفرس بالإضافة إلى ما جاء فى كتب السابقين من العلماء العرب . أما القسم الثانى وهو الأهم ، فيتابع رحلاته الواسعة التى استغرقت من عمره أربعة وثلاثين عاما . وقد نختلف على أى البلاد التى زارها وتلك التى لم يزرها بل قد نعيب عليه استطراداته الكثيرة وعدم رفضه للأساطير وتدوينه لآراء دون تمحيص ، ولكن لا خلاف فى أنه رحالة من طراز فريد أثرى المكتبة العربية بذخيرة ليس لها مثيل فيما بلغنا من أدب الرحلات فى التراث العربى .

أرجو أن تكون هذه الدراسة نقطة انطلاق إلى دراسات أوسع وأشمل للأدب الجغرافى فى تراثنا العربى خاصة فيما يتصل بالرحلات ، شريطة ألا يكون الفخر فيها بالآباء دون الأمل فى الأبناء .

وفى الختام لابد لى أن أضيف كلمة عرفان بالجميل إلى كل من عاوننى على إعداد هذا العمل وإخراجه بهذه الصورة . وبالله التوفيق .

عبد الفتاح وهيبه

الأسكندرية فى

٢٩ رجب ١٤١٥ الموافق أول يناير سنة ١٩٩٥

نظـــرة عامـــة

العرب قبل الإسلام وبعده :

كان العرب فى نشأتهم الأولى يتمتعون بحس جغرافى صادق شأنهم فى ذلك شأن كل الشعوب التى تعيش بالفطرة . فقد كانوا على دراية تامة بمواقع الأشياء فى بيئاتهم ، لا تنقطع بهم السبل إليها ليلا أو نهارا . بل إن حياتهم البسيطة تلك أفسحت لهم مجال الملاحظة للتحقق من مواضع الخطر والتماس موارد الماء ومنابت العشب .

وتحدثنا كتب الأدب والتاريخ بما عرف عن العرب قبل الإسلام من تصورات واضحة لبلادهم ففى شعرهم ونثرهم شىء كثير من طبيعة أرضهم وصفاتها وإشارات عديدة إلى الأماكن وما بها من نباتات وحيوانات فضلا عن ذكر طرقها ومسالكها ومضارب القبائل ومنازل القمر وأسماء الكواكب والنجوم(١) . وليس يخفى أن الشاعر العربى هو الذى نقل لغة الطبيعة إلى لغة شعرية موسيقية تنجذب إليها الأسماع وتطرب لها النفوس . ولما كان موضع حفاوة حيثما نزل ، فقد كان الشاعر أكثر العرب تنقلا يفد على الملوك وسادات القبائل مادحا فيلقى كل تكريم . والعرب إلى ذلك لم يكونوا فى واقع الأمر فى عزلة عن العالم القريب والعالم البعيد . فسفنهم كانت تسعى بين الهند وسواحل اليمن وعمان وقوافلهم ربطت مكه ويثرب بالشام وبلاد ما بين النهرين واليمن فتسربت إليهم أخبار عن بلاد غير بلادهم(٢) .

وربما ظلت هذه الثقافة بسيطة ومحدودة لو لم يمن الله على العرب بالإسلام . فقد خرجوا بعد أن ملأ الإيمان قلوبهم يدعون لدين الله ويجاهدون فى سبيله . فنصرهم الله وفتح عليهم بلادا واسعة كانت تخضع لسلطان الفرس والروم . وقد اتسعت رقعة دولتهم فى خلال مائة عام من وفاة رسول الإسلام (ﷺ) كما لم تتسع دولة من قبل . وصارت مع الأيام عالما واحدا مشتركا فى الدين والثقافة . وغنى عن البيان أن الثقافة العربية بعد الإسلام تميزت بميزات

(١) عبد الفتاح وهيبه « جغرافية العرب فى العصور الوسطى » ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١ .

(٢) شرحه .

لعل أهمها التخير الدقيق لغذائها بما يتفق مع روح الإسلام . فالتعرف على المكان والنظر فى آيات الله التى بينها لعباده مبدأ اسلامي مستقر . فالله سبحانه وتعالى يدعو المسلمين أن ينظروا ماذا فى السموات والأرض . وعملا بما أنزل الله رغب الخلفاء وعلماء الأمة وقادة الجيوش معرفة شيء من صفات البلاد التى دخلت فى حوزة الإسلام . من ذلك ما ذكره الرواة من أن عمر بن الخطاب كتب إلى أحد الحكماء حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر غيرها من البلاد . يقول : « إنا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن الأمصار فصف لى المدن وأهويتها ومسالكها وكيف يؤثر الترب والأهوية فى سكانها[1] » . وفى أواخر القرن الأول للهجرة كتب عمر بن العزيز إلى واليه أن يوافيه « بصفة الأندلس وأنهارها » .

نقل الثقافات :

وبعد أن استقرت دولة الإسلام وامتد سلطانها لم يتردد العرب فى نقل ثقافات أصحاب الحضارات القديمة تقديرا منهم للفكر الإنسانى شريطة أن يتفق ذلك مع ما جاء فى القرآن والسنة . وكان عملهم رائعا فبعد أقل من قرن على قيام بغداد (٤٠ هـ /٧٦٢ م) كان التراجمة من كل النحل والملل قد نقلوا إلى العربية مؤلفات لأرسطو وأفلاطون وجالينوس وأبقراط وبطليموس الجغرافى إلى جانب كثير من كتب الفرس والهند . ولقد بدأ عهد جديد فى تاريخ الأدب الجغرافى وخاصة الفلكى منه بتولى المأمون الخلافة (١٩٨ هـ /٨١٣ م) فقد ازدهرت الدراسات الفلكية التى اعتمدت عليها الجغرافية الرياضية بعد أن أنشأ مرصدين مزودين بالأجهزة والكتب اللازمة ، وبعد أن أشار بإعادة ترجمة كتابى بطليموس الجغرافى « المجسطى » **Magisti** و « الجغرافيا » **Geographike**

---

(١) المرجع السابق ص ٤ .

ملحوظة : نظراً لكثرة الرجوع إلى كتابى المسعودى « مروج الذهب » والتنبيه والإشراف » فى برمز للأول منهما بحرف م . وللثانى بحرف ت . وذلك فيما يلى من حواش .

بسبب ما حوته الترجمة الأولى من أخطاء[١] . وبذلك أتيحت للعرب فرصة نادرة للأستفادة من كتاب « المجسطى » بعد نقده وتحقيق ما جاء فيه بالمشاهدة والاختبار . لذلك جاءت المعارف الجغرافية الرياضية فى هذه المرحلة متأثرة بفكر بطليموس . لكن ما لبث هذا النمط من الأدب الجغرافى أن صار عربى الهوية بفضل فلكيين عرب أفذاذ من أمثال عبد الرحمن الصوفى (ت ٣٧٦ هـ /٩٨٦ م) ومحمد الفارابى (ت ٣٣٩ هـ /٩٥٠ م) .

وربما كانت الفوائد التطبيقية للجغرافية الرياضية هذه من بين أهم العوامل التى حفزت كثيرا من رجال الدين وقادة الجيوش والتجار والمثقفين بعامة إلى معرفة شيء منها بالقدر اللازم لمطالب العبادة فعرفوا ما للشمس والقمر من ارتباط بالشرع عندما توظف فى تحديد المواقع الفلكية للمدن الإسلامية ومن ثم معرفة مواقيت الصلاة وأوائل الشهور القمرية فضلا عن تحديد القبلة[٢] .

تطور الجغرافية الوصفية :

وفيما بين القرنين الثانى والثالث للهجرة (الثامن والتاسع الميلاديين) بدأ فى الظهور نمط من الأدب الجغرافى يقدمه لغويون فى الغالب ، مهد ولاشك لنمو جغرافية وصفية .

ظهر هذا الأدب فى كتب الأنواء التى اشتملت على أشتات من الملاحظات عن الطقس وظواهر الطبيعة ومنازل القمر متبوعة بتعليقات لغوية وغير لغوية . وتمضى هذه السلسلة من كتب الأنواء متكاثرة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة حيث دخل مؤرخون مثل أبى حذيفة الدينورى (ت ٢٨٢ هـ /٨٩٥ م) حلبة المنافسة . بيد أن سيادة المنهج اللغوى على المنهج الواقعى ممثلا فى وصف الأشياء لم يحل دون ظهور رسائل وكتب تمثل إرهاصات الأدب الجغرافى الوصفى ، تشتمل على خليط من الجغرافية

---

(١) يعبّر المسعودى عن تطور صنع المصورات فيقول: «وفى الصورة المأمونية التى عملت للمأمون .. صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبرّه وبحره وعامره وعامره ومساكن الأمم .. وهى أحسن مما تقدمها من حغرافيا بطليموس ـــ ت . ص ٤٦ـــ٤٧ .

(٢) Reinaud, M. Géographie d'Aboullfeda, T.I , Paris 1848, pp. 40-47
وراجع أيضا :
Charles dé la Roncière - Le découverte dé l'Aftique au Moyen Âge T.1, Soc. R. de Géog. d'Egypte, Le Caire 1925, pp. 16-17..

والاثنوغرافية ، ومن أمثلة هذه الكتب « كتاب الصفات » للنضر بن شميل (ت ٢٠٣ هـ /٨١٨ م)

هذه البدايات المتواضعة أعقبتها تطورات متلاحقة ازدهر بفضلها هذا الأدب حتى بلغ الأوج فى القرن الرابع للهجرة (١٠ م) بفضل مدرسة البلخى (ق. ٤ هـ /١٠ م) التى التزمت منهج الكتابة الجغرافية كما ينبغى أن يكون . ولعل المقدسى (ت ٣٩٠ هـ /١٠٠٠ م) صاحب كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » خير من يمثل هذه المدرسة المنهجية . ولم يكن أدب الرحلات أقل تطوراً فقد اتسع مجال الرحلة وأضاف الرحالة إلى الأدب الجغرافى بعامة لمحات وضاءة وثراء ومتعة .

وفى هذا يقول المستشرق الروسى أ. كراتشكوفسكى . بلغ الأدب الجغرافى فى القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادى) أوجه فى مجال تطوره الخلاق . وهو إيزخر بمصنفات هامة .. كما شهد أكثر آثار الكرتوحرافيا العربية أهمية وأصالة وهو أطلس الإسلام . وقد بلغ عدد الرحلات فى هذا القرن حداً كبيرا(١) .

وإذا ما رجعنا فى الزمن قليلا إلى الوراء نجد أن توسيع المعرفة بالعالم القريب والبعيد ، ربما كان من أبرز إسهامات العرب الثقافية على مستوى العالم . فقد كان السفر من أجل الكشف عن المجهول أو طلبا لعلم أو رغبة فى التكسب من التجارة أو طمعا فى أداء فريضة الحج من أهم الأساليب التى اتبعها العرب فى توسيع معرفتهم بديار المسلمين وبلاد الكفرة من حولهم ، فاتسع عالمهم ليضم أقطارا لم يعرفها اليونان ولا الرومان إلا اسما(٣) .

وأدب الرحلات فن عربى أصيل ارتبط بحياة التنقل والترحال التى عرفها العرب الأولون . ويشهد شعرهم ونثرهم على ما خبروه ولمسوه عندما كان يعم الخير بهطول الغيث وعندما يسود الأمحال بانقطاعه .

---

(١) عبد الفتاح وهيبه « الجغرافية والثقافة الإسلامية » ، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول ، الرياض ١٤٠٤ هـ /١٩٨٤ م ، المجلد الثالث ، ص ٤١٧ .

(٢) كراتشكوفسكى « تاريخ الأدب الجغرافى » ، ترجمة صلاح الدين هاشم ، القاهرة ١٩٦٢ ، جـ ١ ، ص ٢٣ .

(٣) عبد الفتاح هيبه « جغرافية العرب فى العصور الوسطى » ، مجامع سابق ص ٣ .

وفى السنوات العجاف تلك نجدهم وقد هجروا مضاربهم إلى أكناف المدن وإلى مواضع المياه الشحيحة . وقد تمتد سنوات الجفاف وتعم سائر الإقليم ، وعندئذ تضطر القبائل إلى هجر ديارها إلى أرض بعيدة تختارها دار إقامة إلى حين . ولم تكن حياتهم مع ذلك مقصورة على الرعى المتنقل فقد اشتغلوا بنقل المتاجر عبر فيافى الجزيرة العربية . ولا نبعد عن الصواب إذا ما قلنا إنهم كانوا حداة إبل ورعاتها كذلك . وحيثما طافت البحار بجزيرة العرب سعت السفن بين موانيها وموانى بلاد فارس والعراق ومصر حاملة عروض التجارة والمسافرين فازدادت المعرفة بالعالم القريب . حتى إذا ما بزغ نور الإسلام وامتد ليشمل بقاعا واسعة فى الشرق والغرب صار العرب حملة الدين الخاتم سادة فى البر وفى البحر .

التجارة وانتشار العرب بعد الإسلام :

وربما كانت التجارة بعد ظهور الإسلام من أقوى الأسباب التى عاونت على اتصال الشعوب وازدياد المعرفة بالعالم المعمور(١) ، بل أغرت جماعات من التجار العرب على الإقامة فى بلاد بعيدة وكان لبعضهم شرف نشر الإسلام بالأسوة الحسنة .

فعلى ساحل بحر الزنج فى الغرب قامت مدن اسلامية انشأها عرب من جنوبى الجزيرة العربية نذكر منها مقديشو وزنجبار وبراوة وممبسة . وفى شبه القارة الهندية عاشت جاليات عربية ضخمة فى مدينة صيمور Saimur قرب بمباى ، وفى مدينة الديبُل فى اقليم السند الإسلامى .

وتشير المصادر التاريخية إلى وجود تجار عرب نزلوا ثغور الصين خاصة مدينة خانفو إبان القرنين الثانى والثالث الهجريين (الثامن والتاسع الميلاديين) . ومن المعروف أن عدد الرحلات التجارية للصين إلى موانى الخليج (مسقط وسيراف والبصرة) انخفض مع بداية القرن الثالث للهجرة (٩ م) على حين زاد سفر التجار العرب إلى البحار الجنوبية(٢) .

(١) Kramers, J.H., Geography & Commerce, Legacy of Islam (ed.) T. Arnorld and A. Guillaume, Oxford University Press, 1947, pp. 92-94.

(٢) المرجع السابق ص ٩٤ــ٩٥ .

وكانت التجارة بعد ذلك دافعا قويا إلى انصراف تجار عرب إلى الهند والصين وربما أبعد شمالا وإلى شمالى أوربا وإلى ديار المسلمين فى آسيا ثم إلى ساحل الزنج والسودان ، ومع التجارة انتقل الإسلام ومعه اللغة العربية لغة القرآن الكريم .

أدب الرحلات الذى تعرف إليه المسعودى :

وقد يكون من المفيد فى هذا المقام أن نعرض فى إيجاز لأدب الرحلات الذى اطلع عليه المسعودى وينتمى إلى القرون الهجرية الثلاثة التى سبقت ظهوره جغرافياً ومؤرخاً رحالة مع إضافة النصف الأول من القرن الرابع للهجرة الذى قام فيه بجولاته فى بلاد المسلمين وغير المسلمين . وما من شك فى أنه استوعب ما ذكره الرحالة السابقون خاصة ما يتصل بالصين والبحر الحبشى (المحيط الهندى) وساحل الزنج .

وإذا كانت حياة الارتحال أسلوب حياة جُبِل عليه ساكن الجزيرة العربية قبل الإسلام فإنه تنوع فى ظل الإسلام بتنوع الدوافع والحوافز الدينية والسياسية والعلمية والاقتصادية . فالحج وخروج السفارات إلى بلاد أجنبية لاستكشاف المجهول من أحوال الشعوب الكافرة والسفر للتفقه فى الدين وركوب البحر وقطع البر فى رحلات تجارية واسعة ، كل ذلك كان من آثار قيام دولة الإسلام . ومع ذلك ورغم كثرة الرحالة وجوابى الآفاق وتنوع أهدافهم فإن قلة منهم هى التى حرصت على تسجيل تجاربها ومشاهد رحلاتها لفائدة الأجيال اللاحقة .

وفى هذا الخصوص فإن عدد الكتب أو الرسائل التى تضمنت رحلة بعينها نتعرف منها إلى هدفها وبدايتها ونهايتها مكاناً وزماناً فى الفترة موضع الدراسة قليل نسبياً . نذكر منها على سبيل المثال رحلة ابن وهب القرشى إلى الصين سنة ٢٥٦ هـ / ٩٢١ م . هذه الرحلات وإن التزم القائمون بها بوصف الواقع إلا أنها مع ذلك لم تبتعد تماماً عن ذكر الخرافات والأساطير . وسنعود إلى أخبار هذه الرحلات فى الصفحات التالية .

وقد اختلفت عما سبق رحلات قام بها جغرافيون بحثاً عما وراء المعلوم . كانت رحلات واسعة شاقة انتظمت بلاد المسلمين فى الغالب حرص القائمون

بها على تصوير الواقع اعتماداً على المشاهدة والاستخبار . كما اهتم المسالكيون منهم بوصف الطرق التى كانت تخترق العالم العربى لتربطه ببقية بلاد الإسلام وبلاد الكفر المحيطة .

وعلى الرغم من الموضوعية التى التزم بها هؤلاء الجغرافيون من أبناء القرنين الثالث والرابع للهجرة (٩ ، ١٠ م) إلا أنهم كما يقول شوقى ضيف « اتبعوا طريقة ممتعة فى وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم إذ عُنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعها وآثارها وقصوا ما عندها من أساطير وخرافات »(١) .

هذا عن الذين ارتحلوا وسجل التاريخ أسماءهم ، أما أولئك الذين اختاروا حياة السفر سبيلاً إلى طلب العلم أو نشره أو وسيلة إلى الإسترزاق من التجارة ، وتجاهلهم التاريخ ، فإن أعدادهم خلال هذه الفترة تكاد لا تحصى .

وإذا ما صرفنا النظر عن التجارة والتجار ، فإن العصر الذهبى للحضارة العربية (فى القرنين الثالث والرابع) للهجرة شهد إقبالاً غير مسبوق على التعليم استيعاباً لثقافة العصر بما لا يتعارض مع تعاليم الدينَ . ولنترك لأحد المستشرقين الذين انبهر بحضارة العرب فى هذا العصر يحدثنا عن انطباعاته هذا الخصوص . « إن بغداد وهى فى أوج عظمتها قد اجتذبت إليها أشياء أخرى غير التجارة المادية . ذلك أنها أصبحت ردحاً من الزمن مركز الثقافة العربية . ولم تحدث فى تاريخ المدينة حركة أكثر روعة من ذلك الشغف الفجائى بالثقافة الذى حدث فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . فكان كل مسلم من الخليفة إلى الصانع ، يبدو كأنما اعتراه فجأة شوق إلى العلم وظمأ إلى السفر ، وكان ذلك خير ما قدمه الإسلام . وكان تهافت طلاب العلم على مركز مثل بغداد ومن بعدها المراكز الأخرى . شبيها بذلك التيار الحديث من العلماء الأوربيين الذين كانت تموج بهم الجامعات بحثاً وراء العلم الجديد ، بل لقد كان أكثر منه روعة » . ويضيف « أما المساجد وهى التى كانت ومازال بعضها — جامعات الإسلام ، فإنها عجت بالطلبة الذين ملأتهم الرغبة فى العلم وقد جاءوا للاستماع إلى محاضرات العلماء فى علوم الدين والشريعة .. والطب والرياضة .

---

(١) شوقى ضيف ، الرحلات ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ١٢

وقد جاء العلماء أنفسهم من جميع ارجاء العالم الذى كان يتكلم اللغة العربية »[1] .

أنـواع الرحـلات :

ونلتقى ابتداء من النصف الأول من القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى) بأخبار رحلات علمية واستكشافية وتجارية وغيرها من الأنواع . وما من شك فى أن المسعودى المشهود له بسعة الإطلاع كان على علم بأخبار كل تلك الرحلات التى تمت قبل عصره والتى أضافت الكثير إلى ثقافته العريضة . فى مطلع هذه الفترة نقرأ عن رحلات علمية ذات أهداف عملية فى معظم الأحوال . نذكر منها البعثة التى أوفدها هارون الرشيد (١٧٠ـــ١٩٣ هـ/٧٨٩ـــ٨٠٩ م) إلى بلاد اليمن بهدف معرفة من أين يأتى العنبر الذى كان سلعة ترفيه فى ذلك الزمان . وقد عادت البعثة بعد أن حققت هدفها وبعد أن استقصت أحوال سكان عدن وخاسك على ساحل المهرة وغيرها من الأماكن المأهولة بجنوبى جزيرة العرب .

واقترنت بحفيد هارون الرشيد وهو الخليفة الواثق (٢٢٧ـــ٢٤٢ هـ / ٨٤٢ـــ٨٤٧ م) رحلتان استكشافيتان باعثهما خيالى اشترك فيهما رياضى شهير هو محمد بن موسى (ت ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م). تهدف الأولى إلى فحص كهف الرقيم وخبر أهل الكهف، وتهدف الثانية إلى استكشاف سد يأجوج ومأجوج. وقد توجهت الرحلة الأولى إلى قرب عمورية (فى آسيا الصغرى) بعد الحصول على موافقة إمبراطور بيزنطة . وقد أثبت المسعودى أخبار هذه الرحلة فى كتابه « مروج الذهب »[1] . أما الرحلة الثانية فكانت رحلة سلام الترجمان فى حوالى عام (٢٢٧ـــ٢٢٨ م / ٨٤٢ـــ٨٤٣ م) إلى الأصقاع الشمالية بغرض اكتشاف سد يأجوج ومأجوج[2] ومعرفة ماذا حدث له بعد أن تراءى للخليفة فى المنام كأنما انفتح ليتسرب منه يأجوج ومأجوج ليفسدوا فى الأرض[3] . وقد اتجه سلام إلى بلاد أرمينية وعبرها إلى بلاد الكُرج

(١) S. Lane-Pool. The Golden Age of the Arab Civilization- History of the World, (Ed.), G.A. Hamerton, Vol. 4, London 1950, pp. 603-618.

(٢) م. جـ ١ ، ص ٣١٤ .

(٣) ياقوت الحموى ـــ معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٩ ، الجزء الثالث ، ص ١٩٩ـــ٢٠٠ .

(جورجيا حديثا) ومنها إلى بلاد الخزر (فى الحوض الأوسط لنهر الفلجا) ثم اتجه إلى بحيرة بلقاش وبلاد جنغاريا ، ومن هناك عاد إلى العراق مارا بسامراء . ومن المرجح أنه أبصر سد القوقاز المشهور عند مدينة الباب أو باب الأبواب (درنبد حديثا) ، وثمة من يرى أنه ربما بلغ سور الصين العظيم .

ومن الحوادث ذات الأهمية فى زيادة المعرفة بالدولة البيزنطية تلك التى وقعت أيام الواثق حادثة افتكاك مُسلِم الجرمى من أسر البيزنطيين فى المحرم من عام (٢٣١ هـ / سبتمبر ٨٤٥ م)[1]

وحفظ لنا المسعودى قصة اطلاقه ووصفه بأنه كان ذا معرفة بالثغور والروم وبلادهم وألف كتابا فى أخبارهم وأخبار ملوكهم وبلادهم وطرقها ومن جاورهم من الممالك[2] . ويلحق بالرحلات العلمية بعثة ابن فضلان إلى بلاد البلغار سنة (٣٠٩ هـ / ٩٢١ م) . والبلغار شعب يسكن الحوض الأوسط من نهر أتل (الفلجا) وكان أكثرهم ينتحل الإسلام قبل رحلة ابن فضلان . وسبب خروج هذه البعثة أن ملك البلغار أسلم وكتب للخليفة العباسى المقتدر بالله أن يبعث إليه من يفقهه فى الدين .. ويبنى له مسجدا وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة فى جميع أقطار المملكة . فاستجاب الخليفة لطلبه وأرسل إليه بعثه كان ابن فضلان فيها المتفقه فى أمور الدين . خرجت البعثة من بغداد فى عام (٣٠٩ هـ / ٩٢١ م) متجهة إلى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار . ومما ينبغى ذكره هنا أن المسعودى كان فى هذا الوقت يطوف بلاد بحر قزوين . وقد وصف ابن فضلان رحلته فى رسالة كانت عونا لمعاصريه ومنهم المسعودى ومن جاء بعده من الرحالة فى التعرف إلى حضارة البلغار وعاداتهم وتجاراتهم[3] . ومما أقلقه أثناء إقامته بينهم أن يرى الرجال والنساء ينزلون النهر فيغتسلون .. لا يستتر بعضهم من بعض ، وقد اجتهد فى منع ذلك فلم يوفق . ثم إنه عرض فى رسالته لطول الليل شتاء وطول النهار صيفا فى هذه الأصقاع

---

(١) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، القاهرة ١٩٦٢ ، جـ ١ ، ص ١٤٠—١٤١ .

(٢) عن الأفدية بين المسلمين والروم راجع كتاب « التنبيه والأشراف » للمسعودى ، مرجع سابق ، ص ١٧٦—١٨٢ .

(٣) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٩ ، جـ ٢ ص ٤٨٥—٤٨٦ .

الشمالية ، وكيف أنه تعذر عليه تحديد ساعات الصلاة[١] . وقد حفظ لنا ابن خرداذبة أخبار هذه الرحلة .

هذا عن الرحلات العلمية والسفارات وحادثة من حوادث افتكاك الأسرى . أما الرحلات التجارية فنذكر منها رحلة ابن وهب القرشي ورحلة التاجر سليمان وما أضافه أبو زيد السيرافى إليها مما نقله عن أصحاب المراكب وربما عن بيانات الرحالة الرام هرمزى (ت ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م) أيضا[٢] . وكان ابن وهب رجلا ثريا ذا شأن فى العراق . خرج من سيراف إلى الصين فى نحو عام (٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) بعد أن خرب الزنج البصرة . وانتهت رحلته عند خانفو (كانتون) بمملكة الصين . ثم تقدم إلى مدينة خمدان عاصمة المملكة وهي تقع على مقدار شهرين من خانفو . وهناك التمس مقابلة الامبراطور فأذن له بعد انتظار طويل . وعندما قابله ادعى قرابته لنبى المسلمين فأمر له بالهدايا النفيسة وأوصى به حاكم خانفو . وقد أشار المسعودى إلى هذه الرحلة[٣] .

ومن التجار العرب الذين زاروا الهند والصين عدة مرات فى القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى) تاجر يدعى سليمان . ولا نكاد نعرف شيئا عن نسبه ولا سيرته الذاتية . وتعد رحلاته من أهم الآثار العربية عن الملاحة فى المحيط الهندى وبحر الصين فى زمانه[٤] . ولعلها كانت أهم الرحلات العربية

---

(١) زكى محمد حسن ـــ الرحالة المسلمون ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٢٩ .

(٢) الرام هرمزى : بزرك بن شهريار الناخذاه ، كتاب عجائب الهند برّه وبحره وجزائره . نشر النص مع الترجمة الفرنسية له P.A Von Derlith ، ليدن ١٨٨٣ . وصف الرام هرمزى عجائب البحار وما سمع عنه من جزائرها وما رآه فيها وكتب بيانات عن الصين وسومطرة وجاوة والحبشة ومدغشقر ، وقد أفاد منها المسعودى من خلال أبى زيد السيرافى ـــ راجع كتاب الجغرافية العربية ، س.م. ضياء الدين علوى ، تحقيق وتعريب الدكتور عبد الله يوسف الغنيم والدكتور طه محمد جاد ، الكويت ١٤٠١ هـ/ ١٩٨٠ م ، ص ٧٤ ـــ بذل المعربان جهودا مشكورة وغير منكورة .

(٣) أشار المسعودى إلى هذه الرحلة (رحلة ابن وهب القرشى) فى « مروج الذهب » ، جـ ١ ص ١٤٢ .

(٤) بقيت رحلات سليمان إلى الهند والصين مع الذيل الذى ألحقه أبو زيد السيرافى بها زمنا المصدر الذى يرجع إليه الكثير من الجغرافيين والمؤرخين .

التي تحدثت عن سواحل الصين والطريق البحرى إليها من واقع الخبرة الشخصية مع التزام بالموضوعية(١) .

ففى تلك الفترة كان المحيط الهندى هو مجال المغامرات التجارية أما قاعدته ففى الخليج العربى حيث موانى مسقط وسنجار وسيراف والبصرة .

وقد انتهى إلينا ما كتبه هذا التاجر مذيلا بقصص الرحالة والتجار فى بحار الصين أضافها فى القرن الرابع للهجرة (١٠ م) أبو زيد السيرافى كما ألمحنا، وهو قارىء للكتب جامع للمعلومات . كانت معلومات يتسقطها فى الغالب من النواخذة والرحالة والتجار الذين كانوا يركبون البحر الحبشى (المحيط الهندى) فى طريقهم إلى الهند والصين . وإلى جانب وصف طرق التجارة فإن رسالة سليمان والذيل الذى أرفقه أبو زيد تحدثا عن بعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، ووصفا منتجات الهند وسرنديب (سيلون) وجاوة والصين مع أقل قدر من الخرافات والأساطير . والثابت أن أبا زيد كان على صلة بالمسعودى ، فقد أشار الأخير فى كتابه « مروج الذهب » إلى أنه قابله وتبادلا أخباراً حول طرق التجارة البحرية فى المحيط الهندى وبحر الصين وتناقشا فى معلومات عن الهند والصين وجزائر الياقوت والذهب والتوابل والأفاويه التى تنتشر فى البحر الحبشى »(٢) .

وإذ نعود إلى رسالة سليمان وإضافة أبى زيد إليها نجد أنهما حرصتا على توضيح علاقة المسلمين بالصين إبان القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع

---

(١) راجع فيما يتصل بالملاحة والتجارة فى المحيط الهندى والخليج العربى :
Huzayyin, S.A Arabia & the Far East, "Their Commercial & Cultural relations in Greco-Roman and Irano-Arabian Times" Cairo 1972.
جورج حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ ، انظر أيضا : Kramers, J.H., Geography & Commerce. مرجع سابق .
حسين فوزى ، المعارف العربية الملاحية فى العصور الوسطى ، الفصل السادس من كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ، القاهرة ١٩٧٠ .
نفيس أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافية ، ترجمة دكتور فتحى عثمان ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ص ١٢٩ــ١٤٣ . أضاف المترجم إضافات لها قيمتها فى مجال الجغرافية التراثية .

(٢) سليمان التاجر وأبو زيد السيرافى ، سلسلة التواريخ ، طبع ونشر النص المستشرق الفرنسى لانجلى Langles فى مجلدين تحت عنوان Chaine des Chroniques سنة ١٨١١ م ــ تحدث المسعودى عن لقائه بأبى زيد السيرافى فى م جـ ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

والعاشر الميلاديين) . فضلا عن ابداء ملاحظات طريفة وذكر أخبار الهند وسائر الأقاليم المطلة على المحيط الهندى وبحر الصين . من ذلك أن مدينة خانفو أكبر أسواق الصين حينئذ ومقصد التجار المسلمين من عرب وعجم ، كان فيها رجل مسلم « يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون تلك الناحية .. وإذا كان فى العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين » [١] .

ويقول زكى حسن أنه « بالرجوع إلى المصادر الصينية نجدها تشهد بوجود هذا النوع من الحريات والامتيازات وبأنه امتد ليشمل جاليات إسلامية تعيش فى سائر مدن الصين . فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها » . وفى هذا إثبات صدق كثير مما أخبر به سليمان عن أحوال الصين الاجتماعية فى صدر الإسلام . وقد أثرى سليمان حديث الرحلة بملاحظات طريفة فهو أول رحالة عربى يشير إلى الشاى الصينى بقوله « وملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب ، يشربه الصينيون فى الماء الساخن ويباع منه الشىء الكثير فى جميع مدنهم ويسمونه (ساخ) » . ويقول أيضا فى عادات أهل جزائر المحيط الهندى « ودخلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدّهنون وإذا أراد واحد منهم أن يتزوج ، لم يتزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم »[٢] .

وقد حفظ لنا القزوينى وياقوت مقتبسات من وصف أبى دلف مسعد بن مهلهل لرحلته فى الصين والهند فى نحو عام (٣٣١ هـ / ٩٤٢ م) . لكن ليس ثمة ما يشير إلى أن المسعودى الذى نزل مصر فى نفس العام قد أطلع على أحداثها ، لذلك ليس ثمة ما يدعونا إلى عرض ما جاء فى هذه المقتبسات . ونكتفى بما سبقت الإشارة إليه والخاص برحلة سليمان وإضافة أبى زيد .

وفى الختام لا نضيف جديداً إذا ما قلنا إن الجغرافية العربية التراثية كانت نمطا من الثقافة الأدبية شأنها فى ذلك شأن التاريخ . وهذا يفسر سبب تزايد الاهتمام بالكتابة الجغرافية . فالمعارف الجغرافية كانت لا تقل أهمية فى تكوين

---

(١) زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٢٥ .

(٢) كتاب سلسلة التواريخ — مرجع سابق ص ١٦—٤١ .

المثقف العربى عما كان يلم به من غيرها . فكان أفضل ما يرغب الإحاطة به إلى جانب شيء من الجغرافية والفلك شيء من الشعر وأنساب العرب والسيرة النبوية وأخبار فتوح الإسلام وتواريخ الخلفاء . لذلك لم يكن غريبا أن نسمع عن الأديب الجغرافى والمؤرخ الجغرافى والفقيه الجغرافى . ويمثل الجاحظ وهو من أشهر أدباء العربية وأوسعهم ثقافة ، الجغرافيين الأدباء . فقد ضمن كتبه خاصة كتاب « الحيوان » و « البيان والتبيين » كثيرا من المعلومات الجغرافية . بل لقد كتب رسالة قيمة فى الجغرافية التجارية أطلق عليها « التبصر بالتجارة » ، لم تفقد قيمتها كمصدر من مصادر البحث فى الجغرافية التاريخية للتجارة العربية . أما ظهور التاريخ والجغرافية فى الأدب العربى معاً وفى آن واحد كما فى كتابات المسعودى وغيره من الجغرافيين فلأنهما فرعان متلازمان فى شجرة المعارف الإنسانية التى كانت تسمى الأدب بصورة عامة[1] .

---

١) حسين مؤنس ، الجغرافية عند المسلمين وتراث الهنود والفرس واليونان ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٥٩—١٩٦٩ ، ١٩٩—٣٥٩ .

المسعودى

سيرته :

هو أبوالحسن على بن الحسين بن على ، يرتفع نسبه إلى الصحابى عبد الله بن مسعود ، ويرجح أنه ولد نحو عام (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)(١) . وكانت بغداد التى نشأ فيها وعرفها فى شبابه تعيش أزهى عصور الحضارة العربية(٢) ، وذلك بالرغم مما طرأ على الخلافة الإسلامية من وهن وتفكك سياسى بعد وحدة . فقد صار المسلمون ــ وفى مقدمتهم العرب ــ يشكلون عالما واحدا مشتركا فى الدين والثقافة .

وبعد أن نال قسطا من علوم القرآن والسنة واللغة ، خرج وهو لا يزال فى مقتبل العمر يطوف ديار المسلمين من عرب وعجم ، بل جاوزها إلى بلاد الهند وبحر الصين وساحل الزنج . وكان تطوافه واسعا وطويلا استغرق من عمره نحو أربعة وثلاثين عاما جمع فيها مشاهد رحلاته وتجاربه ، كما أحاط خلالها بالتراث الأدبى ومختلف العلوم فى زمانه . من هذه المصادر جميعا استمد محتويات مصنفاته التى بلغ عددها على الأرجح ستة وثلاثين مصنفا تتضمن كل الفنون التى رغب فى معرفتها العرب(٣) .

ومن أسف أن كل هذه المصنفات فقدت إلا من كتابين هما « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » . ويلفت انتباه كل من يطالع الكتاب الأول منهما وفرة المصادر التى رجع إليها وإن يكن دون توثيق فقد بلغ عدد المصادر التى استعان بها نحو مائة وخمسة وستين مصدرا منها العربية الصرفة والمنقولة إلى العربية(٤) . هذا بالإضافة إلى أخبار ما شاهده وعاينه وهو كثير . وإن دلت

---

(١) ابن النديم ــ الفهرست ، طبع بمصر ، ص ٢١٩ .
ابن شاكر ، فوات الوفيات ، طبع بمصر ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

(٢) يقول آدم متز « فى القرن الرابع الهجرى قويت روح الاستطلاع العلمى فأخذت أصابعها تمتد متلمسة الحقائق من كل ناحية » ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٤١ ، جـ ٢ ، ص ٦٠٤ .

(٣) عن مصنفاته انظر الملحق رقم (١) .

(٤) Al-Mas' udi, The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Leiden, 1991, Vol. VI, pp. 785-87.

كثرة مؤلفاته ووفرة مصادره على شيء فإنما تدل على تنوع اهتماماته وغزارة علمه وقبل ذلك حيويته المتدفقة .

ومن مصنفاته التى يعتز بها ولا ينفك يشير إليها فى تضاعيف كتابيه المشار إليهما : كتابه الضخم « أخبار الزمان » بأجزائه الثلاثين ، و « الكتاب الأوسط » . وقد بسط فيهما ما أوجزه فى « كتاب مروج الذهب » . وكان « كتاب التنبيه والإشراف » آخر مصنفاته وفيه أوجز بعض ما جاء فى « كتاب مروج الذهب » . وربما كان حرصه على إيجاز ما سبق أن بسطه فى كتابيه الكبيرين « أخبار الزمان » و « الكتاب الأوسط » رغبته القوية فى ذيوع أفكاره ومعارفه وأخبار رحلاته ، وربما لإحساسه بصعوبة تداول كتابيه المشار إليهما لضخامة حجمهما . وفى هذا يقول « ورأينا إيجاز ما بسطناه .. فى كتاب لطيف (مروج الذهب) نودعه لُمَع ما فى ذَيْنك الكتابين مما ضمَّنّاهما وغير ذلك من أنواع العلوم وأخبار الأمم الماضية والإعصار الخالية مما لم يتقدم ذكره فيهما »(١) . ومن القدماء الذين رجعوا إلى مؤلفاته وخصّوه بالتقدير : ياقوت الحموى وابن خلدون الذى لقبه « بإمام المؤرخين » والنويرى .

وقد صدر كتاب « مروج الذهب » لأول مرة فى بولاق عام (١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م) ثم صدرت له طبعة ثانية عام (١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ م) . وفى أواخر العقد الرابع بعد التسعمائة وألف ميلادية توفر محيى الدين عبد الحميد على نشره فى طبعة محققه صدرت فى القاهرة عام (١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م) . ثم قام يوسف داغر بإصدار طبعة حديثة منه فى بيروت عام (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م) . أما كتابه الثانى « التنبيه والإشراف » فقد ظهرت طبعته الأولى فى ليدن عام (١٣١٢ هـ / ١٨٩٤ م)، ثم توالى أمر نشره فى القاهرة (١٩٣٨) بعد أن حققه عبد الله الصاوى محمد . وفى عام (١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م) قامت مكتبة ومطبعة دار الهلال فى بيروت بنشره فى طبعة أنيقة .

---

(١) انظر محتويات كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » فى الملحقين رقم (٢) ورقم (٣) .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر انصرفت جهود بعض المستشرقين إلى النظر فى أعمال المسعودى . منهم ج. كرامرس الذى قال عنه بشىء من المبالغة « إنه أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة » ، ومن قبل عُنِى أ. سبرنجر A. Sprenger بنقل كتاب « مروج الذهب » إلى الإنجليزية ، وطبع الجزء الأول منه بلندن عام (١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م) . وقام فى وقت لاحق المستشرقان باربيه دى مينار Barbier de Meynard ،وبافـِ دى كورتيى Pavet de Courteille بنقله إلى الفرنسية فى تسع مجلدات ، طبعت بباريس فى الفترة بين (١٢٧٨ـــ١٢٩٤ هـ / ١٨٦١ــ١٨٧٧ م) . أما كتابه الثانى « التنبيه والإشراف » فقد نشر فى ليدن فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ثم نقله إلى الفرنسية كارا دى فو Carra de Vaux وصدر بباريس سنة (١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م) .

ومن المؤسف أنه لم يحظ من المثقفين العرب فى الوقت الحاضر بما يليق به من اهتمام على الرغم من أنه يمثل بثقافته عصراً بكامله . فكل ما كُتب عن آثاره فى العربية يدخل فى أغلبه فى باب الدراسات العامة التى تنشرها بعض الدوريات أو الحوليات أو قد تضمها كتب صغيرة تقدم زاداً ثقافيا للقارىء العادى .

وربما كان دور علماء جامعة عليكرة الإسلامية بشمالى الهند والكلية الإسلامية بكلكتا فى دراسة بعض الموضوعات التى احتوتها مصنفاته أهم الأدوار التى تقوم بها مؤسسات علمية إسلامية(١) . ونخص بالذكر من بين هؤلاء محمد شافى ومقبول أحمد ونفيس أحمد وضياء الدين علوى . ولا تقل إسهامات المستشرقين أهمية مقارنة بما قدمه فى هذا المجال هؤلاء النفر من علماء مسلمى الهند . ويأتى فى مقدمة المستشرقين الذين أولوه اهتماما كجغرافى رحالة أ. كراتشكوفسكى I. Krachkovski(٢) .

وقد تنوعت المعارف الجغرافية التى استقاها هذا الموسوعى من مشاهداته أثناء رحلاته ومن نقوله عن مصنفات السابقين والمعاصرين على حد سواء .

---

(١) فى أوائل عام ١٩٥٨ احتفلت جامعة عليكره بمرور ألف عام على وفاة المسعودى . وصدر بهذه المناسبة كتاب بعنوان Al-Masūdi Millinary Commemoration, Volume, 1950 .

(٢) أ. كراتشكوفسكى ، مرجع سابق جـ ١ ، ص ١٧٥ـــ١٨٦ .

وهو فى كل ذلك يجمل معارف العصر ويسجل تطور الفكر البشرى . ولما كان أديبا مؤرخا قبل أن يكون أديبا جغرافيا فقد جاء أدبه الجغرافى مدخلا لتواريخه التى حفلت بها صفحات مؤلفيه موضع الدراسة ذلك أن الجغرافية والتاريخ كانا عند العرب فرعان متلازمان فوق أنهما من الأدب . وهذا ربما يفسر سبب اختلاف أدبه الجغرافى عن أدب الجغرافيين الرحالة الذين كتبوا بطريقة منهجية فى وصف دار الإسلام ويمثلهم فى ذلك أصدق تمثيل المقدسى (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) صاحب كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم »(١) .

ومع دلك فإنه على الرغم من غياب منهج واضح لهذا الأدب المسعودى وكثرة ما به من استطرادات قد تشتت ذهن القارىء إلا أنه أدب يتميز بالحيوية والثراء والجدة . وهذا ما سوف يكتشفه من يقرأ كتابه الشهير « مروج الذهب » فهو كما يصفه نيقولا زيادة كتاب « سياحة ومعرفة جغرافية وعمران وعلم وأخبار »(٢) .

وإذا كان قد كتب بدون إسناد فهو كثيرا ما يعمد إلى ذكر مختلف الآراء إذا عرض لظاهرة معينة . وحينما يجد تعارضا ينبه القارىء إلى ذلك بقوله « تنازع من سلف وخلف » ، وعادة ما يقف موقفا محايدا من هذه الآراء أو النظريات إلا إذا تعارضت مع ما جاء فى القرآن والسنة . وهو إلى ذلك معتد بنفسه كرحالة من جوابى الآفاق ، يصف ما حفلت به رحلاته من مشاهد امتزج فيها التاريخ بالجغرافية والأدب بالسياسة والخيال بالواقع . والمسعودى قبل ذلك قارىء نهم وكاتب غزير الإنتاج ، يستشهد على قيمة القراءة والكتابة فى الإسلام بقول الله سبحانه وتعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » (سورة العلق : آيات من ١ــ٥) . ثم إن الكتاب عنده هو نعم الجليس ، وهو مؤنس ينشط بنشاط المرء وينام بنومه .

---

(١) كان يبدأ بتقسيم منطقة الدراسة إلى أقاليم أو تحديد موقع المنطقة من العالم المعمور ثم يذكر أهم المظاهر الفيزيوغرافية فى كل اقليم ، يلى ذلك عرض للمدن وما بها من نشاط اقتصادى واجتماعى ثم تسجيل لعادات وطباع السكان وأعمالهم ثم ينتهى بعرض لإنتاج الاقليم من الغلات النباتية والمعدنية .

(٢) نيقولا زياده ، الرحالة العرب ، مجموعة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٤٧ .

على أن العلم الصحيح عنده هو الذى عماده المعاينة والتجربة والاستقراء . وهو يعيب على من يقوم بالتدوين دون أن يكون قد شاهد وعاين وتقصى أنه مقصر فى حق العلم . وفى هذا يقول وهو الرحالة الأشهر « وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نُمِىَ إليه من الأخبار عن اقليمه كمن قَسَّم عمره على قطع الأقطار ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من مَعْدِنه وإثارة كل نفيس من مكْمنه »(١) . ولكن ليس مجرد وصف المشاهد بكاف إذا ما أردنا التدقيق . فيعاب على أدب رحلاته أنه رغم ثرائه قد يصعب على القارىء أن يتبين متى ارتحل وأين نزل أول ما نزل ؟ فضلا عن أنه ليس من السهولة بمكان تحديد أى أقطار قطعها وأى البحار ركبها فعلا لا قولا . ومع ذلك فقد نظلمه إذا اتهمناه بالغموض طالما أننا لم نُحِط علما بما تضمنه كتابه المفقود المترجم « بكتاب القضايا والتجارب » ، وقد بسط فيه وصف رحلاته وتجاربه كما يقول .

ونختتم هذه الترجمة بما ختم به كتابه « مروج الذهب » بقوله « وجميع ما أوردناه فى هذا الكتاب لا يَسَعُ ذوى الدراية جهله ولا يعذر من تركه . فلقد جمعنا ما فيه فى عدّة السنين باجتهاد وتعب عظيم وجولان فى الأسفار وطواف فى البلدان من الشرق والغرب فى كثير من الممالك غير مملكة الإسلام . فمن قرأ كتابنا هذا فليتدبره بعين المحبة وليتفضل بهمته باصلاح ما أنكر منه مما غيره الناسخ وصحَّف الكاتب .. جعلنا الله ممن يؤثر طاعته .. ثم يتغمدنا بفضله إنه جواد منان »(٢) . وقد انتقل إلى جوار ربه عام ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ودفن بالفسطاط .

---

(١) م جـ ١ ، ص ١٢ .
(٢) م. جـ ٤ ، ص ٣٨٦ ، ٤٠٩ .

القســم الأول
الأدب الجغرافى النظرى

يعرض هذا الأدب للمسائل الفلكية وما قيل حول شكل الأرض وحركاتها وظاهراتها الطبيعية فضلا عن آثار البيئة فى الإنسان . وقد نقل المسعودى هذا الأدب عن كتب متنوعة أشد التنوع . فهى تضم ما اشتهر من ترجمات كتب الحكماء اليونان ومصنفات علماء الروم والهند والفرس بالإضافة إلى المصنفات العربية . وفى هذا يقول متفاخرا : وإنى أتيت بالتفصيل على جميع تسمية أهل الأعصار من حملة الآثار ونقلة السير والأخبار وطبقات أهل العلم من عصر الصحابة ثم من تلاهم من التابعين وأهل كل عصر على اختلاف أنواعهم وتنازعهم فى آرائهم ... إلى سنة (٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م)(١) . ومن ناحية ثانية فإن أندريه ميكيل Andre Miquel يعلى من شأن هذا الأدب لأنه يجمل معارف العصر(٢) . وجدير بالذكر أن ما نقله من أدب جغرافى نظرى ضمن أغلبه كتابه المترجم « بالتنبيه والإشراف » وهو آخر ما صنفه قبيل وفاته فى عام (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) . وليس يخفى أنه لتقويم منقولاته ينبغى تتبعها فى مظانها المختلفة كلما كان ذلك ممكنا . وهذا ما حرصت على القيام به بالرغم من صعوبة التقصى والتحقيق .

إن من يتفحص كتابيه اللذين انتهيا إلينا كما سبقت الإشارة ، يسترعى انتباهه تنوع وثراء أدبه هذا المستمد من المصادر اليونانية خاصة . من تلك المؤلفات اليونانية نذكر كتاب طيماوس Timaeus لأفلاطون (٤٢٧ـ٣٤٧ ق.م) فى علم الكونيات(٣) ، ومؤلفات أرسطاطاليس (أرسطو) الذى عاش فى الفترة بين عامى (٣٨٤ـ٣٢٣ ق.م) ، ومنها

---

(١) م. حـ ١ ص. ١ـ١٧ .
وللتعرف إلى ما اطلع عليه من ترجمات كتب اليونانيين والروم والهند والفرس والكلدانيين ، راجع كتاب « التنبيه والإشراف » ، ص ١٠٨ ، ومن ص١١٥ـ١١٨ . واسهامات الرومان فى هذا المجال محدودة مقارنة بما قدمه اليونان ندكر من الكتاب الرومان اسطرابون وسينيكا وبليبى .

(٢) اندريه ميكيل ، جغرافية الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادى عشر ، جـ ١ ، القسم الثانى ، ترجمة ابراهيم خورى ، دمشق ١٩٨٣ ، ص ٥ .

(٣) ظهرت قصة القارة المفقودة « أطلانته » Atlantis فى هذا الكتاب . وقد هدته تأملاته إلى البحث فى هذه القصة الخرافية ، وفى كتاب طيماوس نشر فكرة فيثاغورث القائلة بكروية الأرض وأنها تتحرك فى مدارها من الغرب إلى الشرق

« الأرصاد الجوية Meteorologica » و « الآثار العلوية » وكتاب « السماء والعالم ومبادى الطبيعة »[1] ، وقد اعتقد أرسطو أن الكون كروى الشكل لأن الكرة ذات شكل مثالى وأن حركة السماء فى اتجاه اليمين لأن اليمين أكثر الإتجاهات احترامه أما دليل كروية الأرض فهو أن ظلها على القمر يتخذ الشكل المستدير . هذا بالإضافة إلى كتابى بطلميوس الجغرافى أو القلوذى Claudius Ptolemy (٩٠ــ١٦٨ م) : المجسطى Magisti ، والجغرافيا Geographike .

ومن الثابت أن اهتمامه بأعمال أرسطو وبطلميوس كان كبيرا . وهذا ليس بمستغرب إذا ما علمنا مدى التقدير الكبير الذى كنه العلماء العرب لكل منهما منذ مطلع القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى) . لكنه بينما اعتمد على أرسطو فى الإحاطة بالجانب الطبيعى من هذا الأدب الجغرافى نجده يستند إلى بطلميوس فى دراسته للجانب الرياضى منه .

ويدخل فى باب هذا الأدب أيضا آثار البيئة فى صحة الإنسان وصفاته ، وقد كتب فيها أبقراط (أوبقراط) Hippocrates (٤٦٠ــ٣٣٧ ق.م) وجالينوس Galênos (١٣٠ــ٢٠٠ م) . وقد تُرجمت كتب هذين الطبيبين وأطلع عليها المسعودى .

و « المجسطى » الذى اطلع عليه المسعودى موسوعة من ثمانية أجزاء : يشكل الأول منها المقدمة وفيها يسجل المؤلف مجموعة توجيهات فى كيفية عمل الخارطة ومعلومات أخرى تفيد فى إنشاء الخارطات . ويضم الجزء الثانى مجموعة لوحات تشكل فى جملتها خارطة العالم المعروف آنذاك ، رسمت على شبكة من خطوط الطول ودوائر العرض . وإذا ما استعرضنا الأجزاء الستة الباقية نجدها تضم ٨٠٠٠ موضع محددة مواقعها فلكيا . أما كتاب « جغرافيا »

(١) راجع جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ترجمة لفيف من العلماء ، دار المعارف ، القاهرة ، الجزء الثالث ، ص.ص. ٢٤٠ــ٣١٧ .
وحول كتب أفلاطون وأرسطو راجع :
Dempier, W. Science in the Ancient World, Cambridge, 1929 وقد ترجمت كل أعمال أرسطو إلى الإنجليزية فى Loeb Classical Libiary, London, 1950 ، راجع أيضا ج. سارتون ، جـ ٣ ، ص ٢٤٩ .

ففيه صفة الأرض ومدنها وجبالها وما فيها من البحار والجزائر والأنهار والعيون ، إلى جانب غير ذلك من الظاهرات . من هذه المؤلفات وغيرها من أعمال مارينوس (ق. الأول م) ، وثميستيوس فى الفلك (ق الخامس قبل الميلاد) . تعرف على النظريات الخاصة بهيئة الأفلاك وصفات الكرة الأرضية والمعمور منها واللامعمور وامتداد المعمور وحدوده والبحر المحيط وبقية الأبحر وماهية الأقاليم السبعة التى ينقسم إليها المعمور ، ثم قرأ كما سبق أن أشرنا[١]. لأبقراط الذى يرجع إليه الفضل فى وضع أسس الطب العلمى كما قرأ ، لجالينوس فى الطب فازداد اقتناعا بآثار الظواهر الطبيعية فى حياة البشر .

وفيما يلى عرض لبعض ما أفاده من هذه المصادر اليونانية فى الموضوعات التالية :

الفلـــــك :

يذكر صاحب « التنبيه والإشراف » أن الناس من سلف ومن خلف تنازعوا فى الفلك . فقال أفلاطون إنه من الطبائع الأربع التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . لكن أرسطو ذهب هو وأكثر الفلاسفة ممن تقدم عصره وتأخر عنه فضلا عن غيره من حكماء الهند والفرس والكدانيين إلى أنه طبيعة خامسة خارجة عن الطبائع الأربعة السابقة « فليس فيه حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة » . ويضيف أن أرسطو يصف الفلك بأنه جسم مدور كرى أجوف يدور على محورين[٢] ... « وهو يدور دورانا طبيعيا دائما وبدورانه ودوران الكواكب التى فيه تنفعل الكيفيات وتنبسط الأركان الأربعة وهى النار والماء والهواء والأرض ، فيتصل ركنان منها وهما النار والهواء بالعلو وركنان منها وهما الماء والأرض بالسفل ثم تتحرك هذه الكيفيات بتحرك الجواهر العلوية والأجرام السماوية على حسب مداراتها ومسيرها وحركاتها وتأثيراتها فيتحرك الركنان الأعليان بتحرك الكيفيات والركنان الأسفلان بتحرك الركنين الأعليين » . ويعتقد أرسطو أنه بفضل هذه الحركة تهب

---

(١) Holt-Jenesen, A. Geography its History & Concepts, New Jersey, 1982, pp. 9-11.
راجع أيضاً :
James, P.E. & Martin, G.J. All Possible Worlds, N.Y., 1981, pp 13-39.

(٢) ت. ص ٢٣ــ٢٤ .

الرياح ... فتنشأ السحائب وينزل القطر . ويعلق المسعودى على ذلك بقوله : « وهكذا ترتبط المدلولات بعللها وتشهد للصانع بصنعته وبدائع حكمته » . « فسبحان الذى أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » . لكنه لا يحاول مناقشة أقوال أرسطو فى الأفلاك وإنما يرجع الأمر كله لله سبحانه وتعالى . فهو العليم بهيئة هذه الأفلاك وتراكيبها والنجوم وتأثيراتها ، ثم يردف قوله « ما يمين العالم وما شماله وما خلفه وما أمامه وتحته وفوقه ـــ الله هو الصانع المدبر . إلا أنها خشيةُ الله . إنما يخشى الله من عباده العلماء » . صدق الله العظيم(١) .

حول مركز الأرض من الفلك :

ردد المسعودى فى هذا الخصوص ما قال به أرسطو وبطلميوس وكل حكماء العالم القديم . فالأرض عندهم هى مركز الفلك ونقطة ثابتة تدور حولها الأفلاك(٢) . ويعبر عن ذلك باسلوبه فيقول : « الأرض فى وسط الجميع كالنقطة فى وسط الدائرة والفلك متجاف عنها من حيث ما أحاط بها .. وهو يدور عليها من المشرق إلى المغرب على أوسع موضع فيه على نقطتين وهميتين متقابلتين فى جنبى كرته احداهما القطب الشمالى .. والثانية القطب الجنوبى »(٣) . وقد ظل هذا الرأى قائما حتى العصر الحديث حين ثبت أن الأرض كوكب من كواكب المجموعة الشمسية وأنها ما هى إلا هباءة فى ملكوت الله تتحرك بقدرته إلى يوم معلوم . وفى هذا المقام لا يتحرج الكاتب من الإشارة إلى قول أرسطو فى « الآثار العلوية » إن الأرض إلى زوال بعد أن تمر بمرحلتى الشباب والهرم .

حول شكل الأرض :

هى كرة تشبه فى ذلك الأجرام السماوية التى شاء الله أن يكون التدوير من صفاتها(٤) . وقد استدل أرسطو على تدويرها من استدارة ظلها على القمر فى

---

(١) المصدر السابق .
(٢) ت.ص ٢٤ـــ٢٥ .
(٣) Smith, D.E. History of Mathematics, Boston, 1923, Vol. I, p. 30.
(٤) Dreyer, J.E. Planetary Systems, Cambridge, 1956, p. 61.

وقت الخسوف . وينقل عن صاحب المجسطى قوله بأن استدارة الأرض كلها وجبالها وبحارها ٢٤ ألف ميل باعتبار أن الدرجة الفلكية $\frac{٢}{٣}$ ٦٦ ميل . أما قطرها فسبعة آلاف ميل وستمائة وسبعة وستين ميلا . لكن لم يتنبه إلى أن الميل الرومانى أقصر من الميل العربى الذى يقدره المستشرق الإيطالى نالينو Nalino بنحو ١٩٧٣ مترا[١] . من ناحية ثانية فإنه اعترض على تقدير أرسطو لمحيط الأرض لأنه فى رأيه مبالغ فيه . فقد قدره بنحو ٤٦ ألف ميل .

المسكون وغير المسكون (المعمور واللامعمور) :

يقسم المسعودى نقلا عن أرسطو الأرض إلى قسمين : مسكون (معمور) وغير مسكون (لا معمور) . وينقسم المسكون بدوره إلى أربعة أرباع الأول منها حار وهو ما كان من جهة الجنوب لأن الشمس تقترب منه فيسخن هواؤه ، والربع الثانى بارد وهو ما كان من جهة الشمال ويبرد هواؤه لبعد الشمس عنه . والربعان الآخران هما المشرق والمغرب وهما معتدلان ، وإن كان فضل المشرق أظهر واعتداله أشهر . ويردد المسعودى مقولة بطلميوس من أن غير المسكون ينقسم هو الآخر إلى قسمين : الأول يفرط فيه البرد لبعد الشمس عنه والثانى يفرط فيه الحر لقرب الشمس منه . وفى القسمين « لا يتركب حيوان ولا ينبت نبات »[٢]

والمعمور عند بطلميوس هو نطاق من اليابسة يبلغ أقصى امتداد له من الشرق إلى الغرب بينما يبلغ أقل امتداده من الشمال إلى الجنوب . وفى موضع آخر يحدد المعمور فيقول بأن طول عمران الأرض يعادل نصف دائرتها أى من حدود الجزائر الخالدات (ربما جزر ماديرا) فى بحر أوقيانوس الغربى (المحيط الأطلنطى) إلى أقصى عمران الصين . ثم ينقل عن بطلميوس عن مارينوس وجهة نظره فى امتداد المعمور من الشمال إلى الجنوب فيقول : « إن أقصى ما وجد عنده من العمارة فى جهة الشمال الجزيرة المعروفة بثولى (أوثوليه)

---

(١) نالينو (كارلو) محاضرات فى علم الفلك : تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى ، بغداد (بدون تاريخ)

(٢) ت. ص ٣٧ــ٣٩

Thule فى أقصى بحر المغرب من الجهة الشمالية وأن عرضها من معدل النهار فى الشمال ثلاث وستون جزءا .. وأن نهاية العمارة من جهة الجنوب .. تبعد من معدل النهار « ستة عشر جزءا وخمس وثلاثين دقيقة وربع وسدس »[1] . ولا يفوته أن يشير إلى الرأى القائل بأن العمارة تمتد أبعد من ذلك جهة الجنوب . وفى هذا يقول : « إن قوما ذهبوا إلى أن الموضع الذى لا يمكن أن يكون فيه عمارة عرضه فى الجنوب واحد وعشرون جزءا وخمس وثلاثون دقيقة » ، وهنا يظهر عدم تمحيص المسعودى للحقائق فهو ينقل دون أن يتحقق من سلامة القول[2] ، ولو أنه فعل لغيّر رأيه . فالمهاجرون العرب والمتزنجون منهم كانوا يعيشون فى أيامه على طول الساحل الشرقى لإفريقية . ومصدرنا فى ذلك كتابه « مروج الذهب » ذاته . فهو القائل أثناء رحلة له فى بحر الزنج « ويركب النواخذة وأرباب المراكب من العمانيين والسيرافيين البحر من سجار (قصبة بلا عمان) ، وسيراف ، فإذا توسطوا البحر دخلوا فى تلك الأمواج العاتية التى ترفعهم وتخفضهم حتى ينتهون إلى جزيرة قنبلو (حزيرة زنجبار) فى بحر الزنج ، وربما يتابعون إبحارهم إلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصى أرض الزنج » . فما أبعد الواقع عن النظرية[3] ، وربما أتى المسعودى بجديد لو أنه حاول أن يتأكد من قول بطلميوس (نقلا عن حكماء اليونان) باحتمال وجود سودان وراء خط الاستواء تحت مدار الجدى مثل السودان الذى تحت مدار السرطان . ومهما يكن من أمر فإن اليونانيين والروم ذهبوا فى قسمة المعمور من الأرض إلى ثلاثة أجزاء هى : أوروفا (أوربا) ولوبية (افريقية) وآسية بينما ذهب الفرس/والنبط والسريانيون فى قسمته إلى : مشارق ومغارب وشمال وجنوب ، وأعطوا لكل جهة إسما خاصا[4] .

---

(١) ت. ص ٤٣ . « تول » أو « ثولية » اسم أطلقه الرحالة بيثياس (ت ٢٨٥ ق.م) على حزيرة تبتعد عن الجزر البريطانية ستة أيام إلى الشمال. عندها « يمترح الهواء بالماء وبالأرض »، وقد ظل اسم ثول على الخرائط نحو ١٥٠ عام قبل أن نعرف أنها هى ساحل النرويج ، راجع Raisz, E. General Cartography, N Y., 1960, p. 9

(٢) ت. ص ٤٤

(٣) م. جـ ١ ، ص ١٠٨ .

(٤) ت. ص ٤٣ .

المسطحات المائية :

يقول المسعودى نقلا عن حكماء اليونان بأحادية المحيط وأنه يغطى الجزء الأكبر من الكرة الأرضية . هذا البحر المحيط مستدير على مواضع الأرض ، والشواهد على ذلك كثيرة لعل أهمها « أنك إذا لججت فيه غابت عنك الأرض والجبال شيئا فشيئا » ، وهذا البحر المحيط يعد « عند أكثر الناس معظم البحار وعنصرها وأنها منه تتشعب ويسمى باليونانية (أوقيانوس) ، أما نهاياته فهى مجهولة عند بطلميوس وغيره »(١)

وقد وقف الكاتب على ما يظن أنه استغلق على غيره علمه وغرب عليه فهمه ذلك أنه عنى بأمر البحار برهة من حياته وصرف اليها همته فقرأ كل ما كتبه حكماء الأمم . ولفت انتباهه من هذه الكتابات قول صاحب المنطق (أرسطو) « أن البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر حتى تصير فى مواضع مختلفة وأن جملة البحار متحركة إلا أن تلك الحركة إذا اضيفت إلى جملة مياهها وسعة سطوحها وبعد قعورها صارت كأنها ساكنة .. وليست مواضع الأرض الرطبة أبدا رطبة ولا مواضع اليابسة أبداً يابسة ، لكنها تتغير وتستحيل لصب الأنهار اليها وانقطاعها عنها ، ولهذه العلة يستحيل موضع البحر وموضع البر(٢) . وربما كانت هذه الفكرة إرهاصا لنظرية تغير توزيع اليابس والماء خلال الأزمنة الجيولوجية وإن كان ذلك لا يعود إلى صب الأنهار فيها وانقطاعها عنها كما يزعم أرسطو .

ويتشعب عن موضوع الغلاف المائى كما عرفه الأقدمون موضوعات فرعية مثل صفات مياه البحر والمد والجزر والحزر والأنهار التى تنتهى مياهها العذبة إلى البحر المحيط والأبحر التى تخرج منه . ومن صفات مياه البحار كما يقول صاحب المنطق أنه أكثف من الماء العذب ودلالته على ذلك كما يذكر المسعودى « أن الماء المالح كدر غليظ والماء العذب صاف رقيق »(٣) . أما سبب المد والجزر فقد تنازع فيه الأوائل من فلاسفة الأمم وحكمائها أهو من أفعال الشمس أم من أفعال القمر(٤) . ولأية علة صار فى بعض البحار أظهر وأقوى .

(١) ت ص ٦٦ .

(٢) م. حـ ١ ، ص ٩٧ــ٩٨ .

(٣) شرحه ص ١٢٨ .

(٤) يقول سارتون « كان أرسطو من أوائل اليونانيين الذين بينوا العلاقة بين القمر والمد والجزر » ، عن تاريخ العلم ، حـ ٣ ، ص ٢٤٢

وقد أدلى العلماء العرب بدلوهم فى هذا الموضوع كما سنشير فيما بعد . وفى موضع آخر من كتاب « التنبيه والإشراف » ينقل الكاتب قول بطلميوس فى كتابه « جغرافيا » بأن عدد البحار المحيطة بالأرض خمسة أبحر (بما فيها البحر المحيط) تنتشر فيها جزر عامرة وغير عامرة ويصب فيها ٢٩٠ نهرا تجرى فى الأقاليم السبعة « دوام الأوقات »(١).

وأول البحار التى خصها المسعودى بالذكر هو البحر الحبشى وذلك « لأنه أعظم ما فى المعمور من البحار وأجلها قدرا وأعظمها خطراً لاكتناف الممالك الجليلة إياه » . وفى رأى بطليموس كما يقول الكاتب أنه ليس فى المعمور بحر أعظم منه ، إذ يأخذ من بلاد الحبشان التى فى المغرب إلى أقصى بلاد الهند والصين التى فى المشرق(٢).

ولا يفوت المسعودى أن يشير إلى أن بطلميوس أدخل هذا البحر فى حد المعمور « وذكر أنه ينتهى إلى أرض فى الجنوب مجهولة ، لكنه يرفض الرأى القائل إن « طول هذا البحر هو ثلاثة أرباح محيط الأرض » ، إذ ليس الوجود كذلك » على حد قوله . وثمة ما يشير إلى أنه كان على بينة من اختلاف رأى الفلاسفة عن واقع الحال بالنسبة لهذا البحر . ففى ملاحظة ذكية يقول « وجدت نواخدة بحر الصين والهند وبحر الزنج واليمن .. ووجدت السيرافيين والعمانيين يخبرون عن السحر الحبشى فى أغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم »(٣) .

ويبدو أن حديثه عن الأنهار التى تصب فى هذا البحر جاء من واقع المشاهدة ولقاء أهل النظر وهذا ربما يفسر أنكاره لقول الجاحظ بأن مخرج مهران السند والنيل من موضع واحد(٤) . أما هذه الأنهار فهى عديدة نذكر منها وفق الترتيب الذى جاء فى النص دجلة والفرات ومهران السند ونهر

---

(١) م. جـ ١ ص، ٨٨ ، راجع أيضا ت. ص ٦٢ .

(٢) يأخذ بهذا الرأى من العلماء العرب أبو يوسف بن اسحاق الكندى فى رسالة له فى « البحار والمد والجزر » ، وتلميذه أحمد بن الطيب السرخسى فى رسالة له فى « منافع البحار والجبال والأنهار » .

(٣) م. جـ ١ ، ص ١٢٨ .

(٤) المصدر السابق

جنجس (الجانج) وأنهار فى بلاد الأهواز وفارس وكرمان والصين .. وغير ذلك مما أحاط به البحر من الممالك . ونكتفي بهذا القدر عن البحار إذ لا جدوى من سرد أوصاف الأربعة الأخرى(١)

الأقاليم السبعة :

إن تقسيم العالم إلى أقاليم أمر شغل بال حكماء اليونان والفرس والهند . وقد نقل المسعودى عن علماء اليونان مفهوم الأقاليم السبعة التى ينقسم إليها المعمور من الأرض . وفى هذا يقول «تنازعَ من عنى من حكماء الأمم وفلاسفتهم بعلم الهندسة ومساحة الأرض فى هذه الأقاليم السبعة فى الشمال والجنوب أم فى الشمال دون الجنوب . فذهب الأكثرون إلى أن ذلك فى الشمال دون الجنوب لكثرة العمارة فى الشمال وقلتها فى الجنوب (جنوبى خط الأستواء) . ثم يضيف أن هناك من علماء اليونان من يقول بأن هناك فى الجنوب سبعة أقاليم كما هى فى الشمال »(٢)

ويمثل الأقليم نظريا نطاقا من الأرض يمتد بموزاة خط الأستواء . ويبدأ الأقليم الأول فى شغلب الأراء مع خط الأستواء وينتهى الأقليم السابع عند خط ٦٠° شمالا الذى يمثل نهاية المعمور . لكنها جميعا تبدأ من المشرق لتنتهى فى المغرب يفصل بينها خطوط العرض . ويكشف المسعودى فى خبر آخر عن صور مختلفة للأقاليم فضلها هرمس وأتباعه(٣) .. فقد كانت تأخذ شكل نطاقات دائرية يقع فى وسطها الأقليم الرابع ــ اقليم بابل والعراق . أما بقية الأقاليم فكانت كما يلى : الأول الهند والثانى الحجاز والحبشة والثالث مصر وافريقية والخامس الروم والسادس يأجوج ومأجوج والسابع الصين وما جاورها . وبهذا يمزج المسعودى بين المفاهيم الاقليمية اليونانية مما يكشف عن سعة اطلاعه . أما أساس هذا التقسيم الاقليمى فمبنى فى رأى حكماء اليونان على اختلاف طول النهار كلما بعدنا عن خط الأستواء . فبينما هو ١٣ ساعة فى الأقليم الأول يطول ليبلغ ١٦ ساعة ونصف الساعة فى الاقليم السابع عند دائرة عرض ٦٠° تقريبا .

---

(١) يتحدث المسعودى فى كتابه « التنبيه والإشراف » عن هذه الأنهر ومصباتها فى الأبحر المختلفة » ، ص ٦١ــ٧٦ .

(٢) ت. ص ٤٥ .

(٣) مطرحه .

البيئة وصحة الانسان وصفاته

قرأ المسعودى لأبقراط وجالينوس فى الطب وخرج بأقوال فى أثر البيئة على صحة الإنسان مما يدخل فى باب الجغرافية الطبية . فينقل عن أبقراط قوله : « يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع إلى هوائها وتنزع إلى غذائها » . ويذكر حكمة جالينوس القائلة « يتروح العليل بتسيم أرضه كما تنبت الحبة ببلل الأرض » . ويضيف إلى ذلك مقولة افلاطون « غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها » وهذا أمر أخذ يجد قبولا واسعا هذه الأيام . ومن الثابت أن اليونان ربطوا بين صفات البيئة وصفات البشر الخلقية والجسدية لكن المسلمين هم الذين طوروا هذا المفهوم لزيادة معرفتهم بالعالم كما سنبين لاحقا(٢) .

المصادر الهندية والفارسية :

أخذ المسعودى عن هذه المصادر معلومات أغلبها تاريخية تتصل بتواريخ الأديان والملوك وبعض النواحى الفلكية ، لذا فيمكن القول إن ما أفاد منها جغرافيا لا يكاد يذكر هذا فضلا عن أن الجانب الفلكى فى هذه المصادر مأخوذ فى جانب كبير منه من كتابات حكماء اليونان . وعن الكتب الهندية التى ربما رجع المسعودى إلى ترجمات عربية لها كتب الفلك المعروفة « بالسندهنتات » ، ويشير إليها المسعودى أو ربما إلى أشهرها باسم « السند هند »(٢) . وكما قرأ للهند قرأ للفرس ، وفى هذا يقول « رأيت بمدينة اصطخر من أرض فارس فى سنة ٣٠٣ هـ عند بعض أهل البيوتات المشرفة فى الفرس كتابا عظيما يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم

---

(١) عبد الفتاح محمد وهيبه ، جغرافية الإنسان ، الاسكندرية ١٩٩٢ ، ص ١٠ كتب ارسطو فى التوزيع الجغرافى للكائنات وعن العلاقة بين هذه الكائنات وبيئاتها الطبيعية وكيف يتأثر كل حيوان بغيره من الحيوانات أو النباتات التى بالقرب منه وهو فى هذا الميدان لم يكن أقل من أبقراط فى الطب ، راجع سارطون ، تاريخ العلم ، جـ ٣ ، ص ٢٧٤ .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن العرب ترجموا فى أيام الدولة العباسية كتب أرسطو فى علم الحيوان . واستعان بها الجاحظ فى كتابه الحيوان وقد أطلع عليه المسعودى — راجع طه الحاجرى ، تخريج نصوص أرسطاليس فى كتاب الحيوان للجاحظ ، مجلة كلية الآداب المجلد ٧٣ ، ١٩٥٢—١٩٥٣ ، ص.ص ١٥—٣٥ .

(٢) س.م ضياء الدين علوى ، الجغرافيه العربيه ، تعريب وتحقيق د. عبد الله يوسف الغنيم ، وطه جاد ، الكويت ، ١٤١٠ هـ ، ص ٢٤ ، راجع كذلك التنبيه والإشراف ، ص ٢٠٤

وأبنيتهم وسياساتهم ، لم أجدها فى شيء من كتب الفرس « كخداى ناماه » و « آئين ناماه » و « كهناماه »[1] .

ومما نقله الكاتب عن الفرس تقسيمهم لأقاليم المعمور من الأرض وفى هذا يقول « قسموا هذه الأقاليم بين الكواكب السبعة (الخمسة والينرين) على قدر تواليها وتتابعها فى الفلك . فالإقليم الأول لزحل وهو « كيوان » بالفارسية له من البروح الجدى والدلو . والإقليم الثانى للمشترى وهو بالفارسية « أورمزد » له من البروج القوس والحوت . الإقليم الثالث للمريخ وهو بالفارسية « بهرام » له من البروج الحمل والعقرب . الإقليم الرابع للشمس وهو بالفارسية « خرشاد » ومن اسمائها « أفتاب » لها من البروج الأسد . الإقليم الخامس للزهرة وهى بالفارسية « أناهيد » لها من البروج الثور والميزان . الإقليم السادس لعطارد وهو بالفارسية « تير » له من البروج الجوزاء والسنبلة . الإقليم السابع للقمر وهو بالفارسية « ماه » له من البروج السرطان . واسم الإقليم أو المملكة بالفارسية « كِشْوَر » وجمعها كِشْورات[2] .

المصادر العربية :

سبقت الإشارة إلى أن المسعودى كان أحد الموسوعيين العرب الذين استوعبوا علوم العصر وفنونه سواء العربية أو المنقولة إلى اللسان العربى . وبمراجعة كتاباته نجد أنه يشير إلى عديد من أصحاب المصادر العربية التى استقى منها معلومات فى الأدب الجغرافى لا تربطها فكرة احدة وإنما هى توجد متفرقة مبعثرة . ولسنا بسبيل ذكر كل المصادر وأصحابها وهى كثيرة العدد منها ما لم يصل الينا .

وسنكتفى بذكر أهمها مشيرين إلى ما أفاد منها فى مجالىْ الفلك والمعارف الجغرافية دونما فصل بينهما ذلك لأن العلم فى ذلك الزمان وحتى وقت قريب كان علما موسوعيا تختلط فيه المعارف اختلاطا واسعا .

رجع إلى مؤلفات هشام الكلبى (ت ٢٠٦ هـ / ٨٢٠ م) التى تعد أقدم ما دونه المسلمون فى هذا الأدب . لكن من أسف لم يصلنا منها إلا نتف

(١) ت. ص ١٠٧—١٠٨
(٢) م حـ ١ ، ص ٤٧ .

صغيرة . وقد قيل أن هذا الكاتب ألف عشرة مؤلفات تحوى موضوعات ذات طابع جغرافى منها على سبيل المثال كتاب « البلدان الكبير » وكتاب « الأنهار » ، وكتاب « الأقاليم »(١) . كذلك كان المسعودى ملما بالكتابات الجغرافية والفلكية لأبى يوسف يعقوب ابن اسحق الكندى (ت ٢١٠ هـ / ٨٧٣ م) فيلسوف العرب الأشهر وتلك التى تركها تلميذه ومريده أحمد بن الطيب السرخسى (ت ٢٨٦ هـ / ٨٨٩ م) . فقد رجع إلى مؤلفاتهما واقتبس منهما واعتبر آراءهما سليمة . بل إنه فضلها على تلك الأقوال المبالغ فيها من قبل بعض الكتاب العرب كتقديرهم مثلا لحجم البحر الحبشى . ويبدو أن كاتبنا أطلع على مؤلفيْن من مؤلفات الكندى واستوعب ما فيهما ونعنى بهما : « رسم المعمور من الأرض » ، و « رسالة فى البحار والمد والجزر » . كذلك قرأ عملين من أعمال السرخسى (الذى أثنى عليه) ، وهما « المسالك والممالك » و « رسالة فى البحار والمياه والجبال » . أما عن المادة التى استخلصها من كتاباتهما فإننا لسنا على يقين من فحواها . لكن يمكن القول إنها تتصل أساسا بمعلومات جغرافية عن البحار خاصة بالمد والجزر وأحجام البحار المختلفة وبكميات مياهها هل فى زيادة أم نقصان(٢) .

وقد اطلع المسعودى فى الأرجح على ترجمة لكتاب المجسطى لبطلميوس قام بها أبو الحسن ثابت بن قره (ق ٣ هـ) أحد كبار الرياضيين والفلكيين العرب . لكنه عاب على فلكية زمانه ومنجمى عصره اقتصارهم على معرفة الأحكام وتركهم النظر فى علم هيئة الأفلاك ، فليس العلم بتأثيرات الفلك (الأحكام) بمستغن عن علم الهيئات « إذ التأثيرات واقعة بالحركات وتبدل الأحوال ، وإذا وقع الجهل بالحركات وقع الجهل بالتأثيرات »(٣) .

ومن مصادر هذا الكاتب التى تعد الأساس الأول للأدب الجغرافى الرياضى عند العرب كتاب « صورة الأرض » للخوارزمى (محمد بن موسى) أحد معاصرى الكندى . ومن المعتقد أن ثمة صلة بين هذا الكاتب وخريطة العالم المأمونية التى تعاون هو وغيره من الباحثين على تحقيق رغبة الخليفة فى عمل

(١) كراتشكوفسكى ، مرجع سابق ، جـ ١ ، ص ١٢٦ .
(٢) م. جـ ١ ، ص ١١٣ــ١١٥ .
(٣) ت. ص ٢٨ .

مصور دقيق للعالم فجاء أفضل من مصور بطلميوس كما أسلفنا فى أحد الهواشى . إذ جاء فيه رسم للقبة السماوية وما بها من نجوم كما صور اليابس والماء والمعمور والمهجور والأقاليم وما بها من مدن وما يسكنها من خلائق .

ومن المصادر الفلكية التى رجع إليها زيج أبى معشر البلخى (٢٧٢ هـ / ٨٨٦ م) وعرف باسم « كتاب المدخل الكبير » وهو يعالج نفس مجال كتاب المجسطى لبطلميوس . وقد كان أبو معشر على علم بالنظريات الفلكية لدى الهنود والفرس . وتظهر فى كتاباته معرفة بالرياح الموسمية التى تهب على الخليج العربى وبحار الهند .. وكتب عن أسباب المد والجزر والتيارات البحرية[1] .

من الكتب ذات الصفة الجغرافية التى أثنى عليها المسعودى ووصفها بالنفيسة كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة (ت ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م) الذى وصفه بأنه كان «إماما فى التأليف متبرعا فى ملاحة التصنيف »[2] كذلك امتدح كتاب الجيهانى الذى لم يصلنا[3] .

إلى جانب هذه المؤلفات الهامة قرأ المسعودى بشغف كتبا أخرى فى الفتوح والأخبار وتواريخ المدن والأنواء والطب والفلاحة والخراج . كما استقى معلومات جغرافية من الأعراب فى البوادى ، ومن كتابات الرحالة كما سبقت الإشارة . وهو إلى ذلك رجع إلى بعض المصادر بحثا عن ضالته من أبيات الشعر تشرح وتؤيد أقواله أو تشير إلى ظواهر جغرافية . وقد يكون من المفيد أن نشير إلى بعض هذه المصادر فيما يلى من حديث .

يذكر المسعودى أنه قرأ كتاب على بن محمد المدائنى (ت ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ م) المسمى كتاب « أخبار القالة » ، وآخر لأحمد بن يحيى البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) المعروف باسم « فتوح البلدان » ، واعتبره أفضل كتب فتوح الإسلام[4] . واطلع على مصنفات آخرين من كتاب الفتوح والمؤرخين والأحباريين نذكر منها كتاب « فتوح مصر » لعبد الرحمن بن عبد

---

(١) راجع : Reinaud, M., Géographie d'Abu'l feda, Introduction General, Paris, Vol., p. 95.

(٢) م. جـ ١ ، ص ١٤ .

(٣) عاب المقدسى على الجيهانى أنه بنى كتابه على كتاب ابن خرداذبة المذكور .

(٤) م. جـ ١ ، ص ١٢ .

الحكم (ت ٢٥٧ هـ) ، و « فتوح الأمصار » لمحمد بن عمر الواقدى (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)[١] ، ورجع إلى كتاب « أخبار بغداد » لمحمد بن أبى طاهر طيفور (ت ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م) . وقد أفاد أيضا من مؤلف يحيى بن بكر فى الآثار المصرية ، كما يبدو أنه حصل على معلومات من كتب لم يسمها لعبد الرحمن الجرمى (ت ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م) فى تاريخ وجغرافية الرومان ومن والاهم من قبائل البلغار والسلاف والخزر وغيرهم . وأغلب الظن أنه استقى معلومات عن منازل القبائل العربية ومواطنها من الهيثم بن عدى الطائى (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) الذى يردد ذكره فى بعض ما كتب . أما ما أطلع عليه من كتب الأنواء والطب والخراج فقد توفر على تأليفها علماء أجلاء نذكر منهم أبو حنيفة الدينورى (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) صاحب « الأنواء » ، وكتاب « النبات »[٢] وأبو بكر الرازى (ت ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م) صاحب كتاب « المنصورى » فى الطب ، وأبو الفرج قدامه بن جعفر (ت بين ٣٠٠—٣٢٦ هـ / ٩١٢—٩٣٧ م) صاحب « كتاب الخراج »[٣] .

يبقى بعد ذلك ما أخذه عن الاخباريين وكتّاب الجغرافية الاقليمية والرواة وما تمثل به من الشعر وهو شىء كثير لا يمكن الإحاطة به فى هذه العجالة . والأمر كذلك فسنكتفى بإشارات سريعة .

ليس من شك فى أن المسعودى كان ملما بالمعتقدات التاريخية التى ترجع إلى ما قبل الإسلام بقدر ما كان عارفا بالتاريخ الصحيح للفترة اللاحقة[٤] ، فهو يشير إلى كتاب « هذه التواريخ بمختلف ألقاب التشريف » مثل « المعنيون بأخبار العالم وملوكه » مما يعنى أنه يتقبل كل ما جاء فيها من أساطير وأقوال . فقد ردد الزعم أن السفر حول الأرض يستغرق ٥٠٠ عام . هذه المعالجة غير النقدية أساءت أحيانا إلى فكره الجغرافى .

وهو مدين فوق ذلك لكتّاب الجغرافية الوصفية (المسالك والممالك) فيما

---

(١) جـ ١ ص ١٤

(٢) شرحه ص ١٥

(٣) شرحه ،

(٤) رجع إلى الرواية عبيد الله بن شرية الجرهمى فى أخبار حمير وكهلان ، ت . ص ٨٨ .

يتصل بوصف الأقطار التى لم يزرها كبلاد الامبراطورية البيزنطية وبلاد المغرب والأندلس ، كذلك هو مدين لكتب التاريخ المختلفة وكتب الفتوح أيضا فيما يتصل بالجغرافية التاريخية للمدن وأسوارها وقلاعها ومساجدها . وعن الاخباريين والرواة نقل جملة من إجابات أهل الاختصاص فى مجالس الخلفاء العباسيين . من أهل الاختصاص هؤلاء نذكر حنين بن اسحاق (ت ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م) الذى أجاب عن أسئلة فى المسائل الطبيعية فى مجلس الخليفة الواثق تكشف عن مدى العلم بهذه الأمور فى النصف الأول من القرن الثالث للهجرة ، ولهذا الحديث عودة .

وإذا كان الشعر العربى خاصة الجاهلى منه مصدرا هاما من مصادر هذا الأدب فإن ما ضمنه المسعودى كتابيه من أبيات لا يفيد كثيرا فى هذا المجال ، وإن كان لا يخلو بعضها من أسماء أماكن وتلميحات إلى بعض الظواهر الجغرافية . نذكر منها على سبيل المثال قول بشار بن برد فى الرافدين :

الرافدان توافى ماء بحرهما ... إلى الأبلة شربا غير محظور(١)

وقول أبو أسماء سعد بن بكر بن هوازن متفاخراً :

نحن كنا الملوك من أهل نجدٍ ... وحماة الذمار عند الدمار
ومنعنا الحجاز فى كل حى ... فمنعنا الفجار يوم الفجار(٢)

وقول هدبة العذرى وهو يومئذ بالمدينة مسجونا :

ألا ليت الرياح مسخرات ... بحاجتنا تباكر أو تؤوب
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا ... وتخبر أهلنا عنا الجنوب(٣)

مفاهيم عربية :

هده هى جملة من المصادر العربية التى أطلع عليها المسعودى واستعان بها فى تكوين أدبه الجغرافى النظرى . ولكى نتعرف على ما هية بعض ما استوحاه أو نقله من هذه المصادر قد يفيد أن نسجل بعض ما ذكر من مفاهيم جغرافية عربية دون أن نحدد مصدراً بعينه .

(١) ت. ص ٥٣ .
(٢) شرحه ص ١٩٥ .
(٣) شرحه ص ٣٣ .

حكمة تكوير الأرض :

يقول الكاتب « إن الحكمة فى كون الأرض كروية الشكل أنها لو كانت مسطوحة كلها لا غور فيها ولا نشز يحرقها لم يكن النبات وكانت مياه البحار سائحة على وجهها فلم يكن الزرع ولم يكن لها غدران تفضى مياه السيول اليها . ولا كانت لها عيون تجرى تنبع بالماء أبدا . لأن مياه العيون لو كانت منها تخرج دائما لفنيت ولصار الماء أبداً غالبا على وجه الأرض . فكان يهلك الحيوان ولا يكون زرع ولا نبات فجعل عز وجل منها أنجادا ومنها أغوارا ومنها أنشازا ومنها مستوية[1] . وأما أنشازها فمنها الجبال الشامخة ومنافعها ظاهرة فى قوة تحدر السيول منها . فتنتهى إلى الأرضين البعيدة بقوة جريها وفى تقبل الثلوج فتحفظها إلى أن تنقطع مياه الأمطار وتذيبها الشمس فيقوم ما يتحلب منها مقام الأمطار » . وحكمة التكوير أيضا « أن تكون الآكام والجبال فى الأرض حواشر للمياه لتحرى من تحتها ومن شعوبها وأوديتها فيكون منها العيون الغزيرة ليعتصم بها الحيوان ويتخذها مأوى ومسكنا ولتكون مقاطع ومعاقل وحواجز بين الأرضين من غلبة مياه الأمطار عليها وما لا يحصيه إلا خالقها »[2] .

وقد صدق المسعودى حين قال أنه لو كانت الأرض مسطوحة لا غور فيها ولا نشز لغطت وجهها المياه فلم يكن زرع ولم تكن أنهار . لكن من الواضح أنه خلط بين التكوير والتضرس ولم يقدر تأثير الكروية على المناخ فى العروض المختلفة كما لم يستوعب كيف يتكور الضوء على الظلمة ولا الظلمة على الضوء بل ربما لم يدرك هو وكثير من أهل زمانه معنى قوله تعالى « خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » (الزمر ٣٩) .

الريـــــاح :

تأثر الكاتب بأرسطو فيما يتصل بمفهوم عناصر المناخ ومنها الرياح لكنه أضاف إلى معلوماته تلك ما اطلع عليه فى كتب الأنواء الإسلامية وما علمه من أجوبة حول المسائل الطبيعية التى شغلت المسلمين أيام الدولة العباسية . « وقد

---

(١) ت. ص ٤١ .

(٢) شرحه ص ٤٢ .

تنازع الناس فى الرياح الأربع ومياهها وطباعها فقال فريق منهم الرياح أربع شمال وجنوب وصبا ودبور ، والصبا من المشرق والدبور من المغرب والشمال من تحت جدى الفرقدين والجنوب من تحت جدى سهيل »[1] . والشمال باردة يابسة والجنوب حارة رطبة والدبور باردة رطبة والصبا يابسة » . وكما أن هناك رياحا تهب من الجهات الأصلية فهناك رياح ثمانية تهب من جهات فرعية . وفى هذا يقول الكاتب « والرياح محدودة بحسب الآفاق تكون الآفاق اثنى عشرة أفقا والرياح كذلك . غير الرياح الفرعية هنالك رياح محلية كالمريسية التى تهب فى النوبة وصعيد مصر » وهى « باردة تقطع الغيوم وتصفى الهواء وتقوى حرارة الأبدان »[2] . ويقع الوباء إذا طالت فترة هبوبها . وهناك البحرية التى تهب على أسفل الأرض (فى مصر) فى الصيف وإذا طال هبوبها يطيب الهواء ويبرد الماء ليلا ونهارا .

قياس محيط الأرض :

« يقدر المعنيون بمساحة الأرض وشكلها تدويرها بنحو ٢٤ ألف ميل وذلك أنهم نظروا إلى مدينتين فى خط واحد أحدهما أقل عرضا من الأخرى وهما الكوفة ومدينة السلام فأخذوا عرضيهما فنقصوا الأقل من الأكثر ثم قسموا ما بقى على عدد الأميال التى بينهما فكان نصيب الدرجة مما يحاذيهما من أجزاء الأرض المستديرة ستة وستين ميلا وثلثى ميل على ما ذكر بطلميوس[3] . فإذا ضربوا ذلك فى جميع درج الفلك التى هى ثلثمائة وستون درجة كان ذلك أربعة وعشرين ألف ميل (نحو ٤٧٣٥٠ كيلا) وكان قطرها سبعة آلاف ميل وستمائة وسبعة وستين ميلا » . لكن طول الدرجة الفلكية هذا والذى تم بالقياس لم يجد قبولا من الفلكيين فمنهم من قدرها بنحو سبعة وثمانين ميلا ومنهم من رآها أقل من ذلك بكثير ولا تزيد على ستة وخمسين ميلا وثلثى ميل . إلا أن المسعودى تمسك بما كشف عنه القياس[4]

---

(١) ت. ص ٣٣ .

(٢) شرحه .

(٣) م. حـ ٢ ، ص ٢١٥–٢١٦ .

(٤) شرحه ، راجع م. حـ ٢ ، ص ٢١٩ .

الأقليم الرابع :

سبق أن أشرنا إلى الأقاليم السبعة التى انقسم المعمور إليها فى رأى اليونان وغيرهم من الأمم القديمة ، لكن تفاوتت الحدود الفاصلة بين الأقاليم من فترة لأخرى ولم يحل الأمر دون ظهور آراء عربية فى هذا الموضوع فقد زعم المسعودى أن جميع المدن الكبرى تقوم فى اقليم واحد وعلى خط عرض واحد(١). لكنه من ناحية أخرى وهو البغدادى النشأة يخص الاقليم الرابع باهتمامه وبيان فضله وبرر ذلك بقوله « إذ كان به مولدنا وفيه منشؤنا وكنا أولى الناس بتقريظه .. وإن كان ذلك أشهر من أن يحتاج فيه إلى أطناب » .

ويتابع الكاتب وصفه فيقول « هذا الاقليم وسط الأقاليم السبعة وأعدلها وأفضلها وبلد العراق وسطه فهو شرف الأرض وصفوتها ، أعدلها غذاء واصفاه هواء متوسط بين افراط الحر والبرد وموضعه الموضع الذى ينقسم فيه الزمان أربعة أقسام فلا يخرج ساكنوه من شتاء إلى صيف حتى يمر بهم فصل الربيع ولا من صيف إلى شتاء حتى يمر بهم فصل الخريف ... والعراق أشرف المواضع التى اختارتها ملوك السريانيين الذين تسميهم العرب النبط ثم ملوك الفرس(٢) . ثم يحدد الكاتب حدود العراق كما يراها فيقول هى تبدأ حيث يلتقى دجلة والفرات فى الجنوب وتضم من السواد البقعة التى يحدها خط وهمى شمالى بين حلوان وتكريت على دجلة وهيت على الفرات . هذه البقعة هى قلب دولة النبط ولب « ايرانشهر » التى تفانت عليها ملوك الأمم فكان اختيارهم بفضل آرائهم المصيف بالجبال ليسلموا من سمائم العراق وكثرة ذبابه وهوامه ، والمشتى بالعراق ليسلموا من زمهرير الجبل (جبال زاجروس) وكثرة ثلوجه وأمطاره ووحلوله واقذاره . وكان الشاعر أبو دلف بن عيسى العجلى يفعل ذلك كما يخبرنا المسعودى فقال مفتخرا به : ٣

إنى امرؤ كسروى الفعال　　　أصيف الجبال وأشتو العراقا(٤)

وبعد أن يصف غنى السواد بالحبوب والفاكهة وارتفاع خراجه فيما قبل الإسلام يردف قوله « وكثير من هذه النواحى اليوم على ما كانت عليه فى ذلك

(١) ت. ص ٥٦ .
(٢) شرحه ؛ ص ٤٨ــ٥١ .
(٣) ت. ص ٥٠ــ٥١ .

الوقت لم يغز أرضوها ولم يبد ساكنوها وإنما يحتاج أن يكون مع ملاكها ومدبريها تقى الله أولا ثم دراية ونجدة وعدل وعفة وسياسة حتى تستقيم الأمور وينتظم التدبير ويأت من الأموال ما يسير به أركان الملك وتعمر به البلاد ويشحن به الثغور ويقمع به العدو »(١).

ويعود بنا الكاتب مرة أخرى إلى أيام الفرس ليصف لنا أحوال السواد فى تلك الأيام وما حدث له فى أيام كسرى أبرويز (ق. ٥ م) . « كان السواد يعد فى أيام الفرس اثنتا عشرة كورة (استان) وطساسيجه (نواحيه) ستون طسوجا » . ثم تغير ذلك على مر الأيام لانخراق دجلة وخروجها عن عمودها فى كورة جوخى بين واسط والبصرة فانتشرت بطائح يبلغ طولها مسيرة أيام وعرفت فى ديوان السلطان (فى أيام المسعودى) بآجام البريد وأخراب جوخى بعد أن كانت أعمر السواد(٢) . وبعد خراب كورة جوخى وإضافة كورة حلوان إلى كورة الجبل صارت كور السواد عشر تحوى ثمان وأربعين ناحية . ثم آل ذلك إلى نقص وخراب « لبثوق انبثقت وجلاء وانتقال وجدب وجور وحيف من الأتراك الذين غلبوا على هذا الصقع إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٤٥ هـ »(٣)

هذا بعض ما ذكره المسعودى عن وطنه العراق فى كلمة وفاء قدمها إليه بعد أن فارقه فى رحلات طويلة « فبعدت الديار وتراخى المزار » . لكنه كان دائم الحنين إليه فإن « من علاقة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواقة »(٤) .

البحـــــار :

كانت معرفة العرب بالبحار إبان القرن الرابع الهجرى أوسع من معرفة اليونان . فقد ركبوها فى سفرات طويلة وعرفوا سواحلها وخلجانها وجزرها وموانيها وما تتأثر به من ظواهر كالرياح والمد والجزر . لكن من أسف أن

---

(١) شرحه ص ٥٢ .
(٢) شرحه .
(٣) ت . ص ٥٤ .
(٤) م. ص ١١٥ .

معرفتهم تلك لم يسجل منها إلا ما اتفق مع قول السلف أما ما كشفت عنه الخبرة العملية فلم يلق الاهتمام الذى يستحقه . وفيما يتصل بالمد والجزر فى البحار يسجل المسعودى كل الآراء اجتهادا ، لكنه كدأبه لم يفضل رأيا على الآخر . فهو ينقل عن النواخذة فى البحر من السيرافيين والعمانيين « أن المد والجزر لا يكون فى معظم هذا البحر (الخليج العربى) إلا مرتين فى السنة ، وفى كل مرة ينحسر الماء فى موضع ويمد فى موضع آخر مقابل » ، أما سبب ذلك فغير مذكور[1]. وفى رأى أبى يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى وأحمد بن الطيب السرخسى أن البحر يتحرك مداً وجذراً بتحرك الريح ، فإذ كانت الشمس فى الجهة الشمالية تحرك الهواء إلى الجهة الجنوبية لعلل ذكرها فيسيل ماء البحر بحركة الهواء إلى الجهة الجنوبية ، فكذلك تكون البحار فى جهة الجنوب فى الصيف طامية عالية (مد) لهبوب الشمال ، وتقل المياه فى جهة البحار الشمالية (جزر) . ويحدث عكس ذلك إذا كانت الشمس فى الجهة الجنوبية . وهو بعد ذلك لا يتردد فى ذكر تفسير أسطورى لهذه الظاهرة البحرية فيقول « إن الملك الموكل بالبحار وضع عقبة فى أقصى بحر الصين فيفور منه البحر فيكون المد ثم يرفع عقبة من البحر فيرجع الماء إلى مركزه ويطلب قعره فيكون الجزر »[2] . وفى ختام حديثه عن هذه الظاهرة يستطرد متشككا ومتعللاً « وإن لم يصح ما ذكرنا فقد وصفنا انفا ما قال الناس فى ذلك .. ليعلم من قرأ هذا الكتاب (مروج الذهب) أنا قد اجتهدنا فيما أوردناه »[1] .

وبفضل رحلاته واطلاعه نجده ينفى القول بوجود صلة بين خليج القسطنطينية (البسفور) وبحر الخزر (قزوين) وفى ذلك يقول مستغربا « رأيت أكثر من تعرض لوصف البحار ممن تقدم وتأخر يذكرون فى كتبهم أن

---

(١) شرحه ، ص ١٢٤ .

(٢) شرحه ، راجع عن المد رسالة الكندى الفلسفية فى العلة الفاعلة للمد ، محمد عبد الهادى أبو ريده ، رسالة الكندى الفلسفية ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٥٣ ، يتحدث المسعودى فى موضع آخر من وجهة نظر عالم عربى عن ملوحة البحر ودورة الماء فيقول : « ومن أهل البحث من قال إن جميع الماء الذى يفيض إلى البحر من جميع ظهور الأرض وبطونها إذا صار إلى تلك الحفرة العظيمة فهو مضاض من مضاض . والأرض تقذف إليه ما فيها من ملوحة والذى فى الماء من أجزاء النار التى تخرج إليه من بطون الأرض .. يرفعان لطائف الماء لارتفاعهما وتبخرهما . فإذا رفعا اللطائف صار منها ما يشبه المطر . وكان ذلك دأبهما وعادتهما ، ثم يعود بعد ذلك الماء مالحا .. جـ ١ ، ص ١٢٦) .

خليج القسطنطينية الآخذ من بحر بنطس (البحر الأسود) يتصل ببحر الخزر ولست أدرى كيف ذلك ومن أين قالوه أمن طريق الحدس أم من طريق الاستدلال والقياس ؟ أو توهموا أن الروس ومن جاورهم على هذا البحر (بحر بنطس) هم الخزر »(١)

وفى موضع آخر ينقل عن الكندى والسرخسى بأن فى طرف العمارة من الشمال بحيرة عظيمة بعضها تحت قطب الشمال وأن بقربها مدينة ليس بعدها عمارة يقال لها ثوليه (Thule) ، ويضيف أنه رأى لبنى المنجّم فى بعض رسائلهم ذكر هذه البحيرة(٢) . وقد حدد بعض المحدثين موقع مدينة « ثوليه » أو « ثولى » بأنها على ساحل النرويج . فإذا كان الأمر كذلك فهذه البحيرة هى فى أغلب الظن البحر البلطى حديثا(٣) . وهذا يكشف عن مدى معرفة العرب ودرايتهم فى هذا العصر بالأصقاع الشمالية الباردة . ثم إن المسعودى يقول بوحدة البحار أى أنها متصلة ، وهذا يعنى أن افريقية تحيط بها المياه وليست كما رسمها بطليموس متصلة بالبر الآسيوى . هذا تطور يحسب للعرب ولاشك .

بعض المسائل الطبيعية :

يكشف المسعودى عن مدى اهتمام خلفاء بنى العباس بالعلم حين يشير إلى مجلس الخليفة الواثق (ت ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م) مع حنين بن اسحاق (ت ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م) أجاب فيه هذا العالم المترجم للكتب اليونانية عن أسئلة حول بعض مسائل الطبيعة التى كانت تشغل بال العرب . من بين هذه الأسئلة نذكر : ما الأشياء المغيرة للهواء ؟ وكم هى أوقات السنة ؟ وكيف تغير الكواكب الهواء ؟ عن السؤال الأول أجاب حنين خمس هى : أوقات السنة وطلوع الكواكب وغروبها والرياح والبلدان والبحار . وعن الثانى أجاب :

(١) م. جـ ١ ، ص ١٢٥ ، بينما يرفض المسعودى أن تكون ثمة صلة بين بحر الخزر وبحر بنطس لا يعترض على الرأى القائل بوجود صلة مائية بين بحيرة ثولية (البحر البلطى) وبحر بنطس من خلال خليج القسطنطينية . وقد ظل هذا الرأى تتناقله الأجيال حتى أيام الدولة العثمانية ، وثوليه كانت عند رحالة العصور الوسطى الأوربيين جزيرة لا تبعد عن المياه المتجمدة الشمالية إلا نحو يوم ابحارا فى المياه غير المتجمدة . راجع :
Newton, S.P., Travel and Travellers of the Middle Ages, London 1949, pp. 6-15;

(٢) شرحه ، ص ١٢٦ .
(٣) كراتشكوفسكى ، جـ ١ ، ص ١٠٦—١٠٧ .

هى أربع : الربيع والصيف والخريف والشتاء ومزاج الربيع معتدل فى الحرارة والرطوبة ومزاج الصيف حار يابس ومزاح الخريف بارد ياس ومزاج الشتاء بارد رطب . أما كيف تغير الكواكب الهواء فيجيب حنين عن ذلك بقوله « إن الشمس متى قربت منها أو قربت هى من الشمس كان الهواء أزيد سخونة وخاصة كلما كانت أعظم . ومتى بعدت الشمس أو بعدت هى من الشمس كان الهواء أزيد بردا »(١) . ومن الواضح أن الإجابة على السؤال الثالث حانبها الصواب ذلك أن الاعتقاد السائد فى ذلك الزمان هو أن الشمس هى التى تدور حول الأرض مقتربة ومبتعدة عنها تبعا لفصول السنة(٢) . .

ونضيف إلى ذلك أن العرب كانوا على علم بأسباب الخسوف والكسوف واختلاف الفصول فى نصف الكرة الأرضية وطول النهار صيفا كلما آتجهنا شمالا وطول الليل شتاء كلما اتجهنا فى نفس الإتجاه ، بل لقد ذهبوا إلى القول بأنه فى بعض المواضع قد تشهد « مقدار شهر من الصيف نهارا كله لا ليل فيه وشهراً من الشتاء ، لا نهار فيه »(٣) . كذلك فسروا سبب حفاف مواضع كفسطاط مصر تفسيرا لا يبعد كثيرا عن التفسير الحديث(٤) .

اختلاف قوى الأرضين وفعلها فى الأبدان :

يرجع كاتبنا الاختلاف إلى ثلاثة أسباب هى : « كمية المياه التى فيها وكمية الأشجار ومقدار ارتفاعها وانخفاضها . ويشرح الكاتب هذه الأسباب بقوله : « فالأرض التى فيها مياه كتيرة ترطب الأبدان والأرض العادمة للمياه تجففها » ، وأما اختلاف قوتها من قبل الأشجار فإن الأرض الكثيرة الأشجار التى فيها تقوم لها مقام السترة تسخن والأرض المكشوفة من الأشجار العادمة لها حالها عكس حال الأرض الكثيرة الأشجار . ولا يخفى أن هذا الشرح يفتقر إلى الدقة . لكن الكاتب أصاب عندما يفسر اختلاف قوى الأرضين من قبل مقدار علوها وانخفاضها فذلك لأن « الأرض العالية المشرفة فسيحة باردة والأرض المنخفضة العميقة حارة ومِدّة »(٥) .

---

(١) م. حـ ٤ ، ص ٨٢ .
(٢) ت. ص ٢٠٨
(٣) شرحه .
(٤) شرحه ، ص ٢٠٩ .
(٥) ت. ص ٤٢ .

العوامل التى تحدد مواضع الاستقرار :

يشرح المسعودى من واقع الخبرة ومن الاطلاع كيف أن العوامل الطبيعية مثل المرتفعات والمنخفضات وطبيعة الأرض القريبة وطبيعة التربة ومجاورة الجبال والبحار تحدد الأماكن السكنى والاستقرار. فالارتفاع يجعل البلدان أبرد والانخفاض يجعلها أسخن كما قدمنا . « وأما اختلافها من جهة مجاورة الجبال لها فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية ، وإنما تهب فيه الشمالية فقط . ومتى كان الجبل من البلد من ناحية الشمال جعله أسخن لامتناع هبوب الرياح الشمالية فيه ، وأما اختلافها لمجاورة البحار فمتى كان البحر من البلد فى ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد وأيبس .. »[1] . ومن الواضح أن هذا التفسير الجغرافى سليم إلى حد كبير ويشكف عن مدى فهم العرب لتأثيرات عناصر البيئة الطبيعية فى نشاط الإنسان .

تأثير المجال الحيوى فى حياة الناس وصفاتهم :

أهتم هذا الموسوعى بالنظر فى أحوال البدو من العرب ونقل عنهم آراء ومفاهيم حول البداوة من ذلك قول ذوى الآراء منهم « إن الأبنية والتحويط حَصْر عن التصرف فى الأرض ومَقْطعة عن الجولان وتقييد للهمم ، وحبس لما فى الغرائز من المسابقة إلى الشرف ، ولا خير فى اللبث على هذه الحالة . وزعموا أيضا أن الأبينة والأطلال تحصر الغذاء وتمنع اتساع الهواء وتسد سروحه عن المرور وقذاه عن السلوك ، فسكنوا البر الأفيح .. وهذا مع ارتفاع الأقذاء وسماحة الأهواء واعتزال الوباء .. ونقاء القرائح .. مع صحة الأمزجة وقوة الفطنة وصفاء الألوان ، وصيانة الأجسام .. وفى هذا الأمن من العاهات والأسقام .. فآثرت العرب سكنى البوادى والحلول فى البيداء .. »[2] .

تأثير المناخ على الإنسان :

تأثير المناخ على الإنسان موضوع كتب فيه حكماء اليونان من قبل لكن كان للعرب ملاحظات خاصة بهم جمعوها بفضل كثرة التجوال واتساع

(١) ت. ص ٤٢—٤٣ .

(٢) م. جـ ٢ ، ص ١١٩—١٢٠ .

معرفتهم بالعالم ، وربما كان ابن خلدون (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م) أشهر من كتب فى هذا الموضوع(١) . ولقد ظل تأثير المناخ فى أشكال البشر وصفاتهم من المسائل التى ثار حولها الجدل حتى وقت قريب . نذكر من الرواد المحدثين الذين قالوا بتأثير المناخ على حضارة الإنسان وصفاته راتزل Ratzel (ت ١٩٠٤ م) وهنتنجتن Huntington (ت ١٩٤٧ م)(٢) . وإذا كان هؤلاء الرواد قد خصوا البيض بميزات ترجع إلى ميل المناخ إلى البرودة مما يدفع إلى العمل فإنه كان للمسعودى بل لحكماء اليونان رأى آخر فى تأثير المناخ البارد على سكان الربع الشمالى من المعمور . يقول المسعودى عن هؤلاء السكان « هم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين فى الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم ، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها ، فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة . فقل مزاج الحرارة فيهم فعظمت أجسامهم وجفت طبائعهم وتوعرت أخلاقهم وتبلدت أفهامهم .. وابيضت ألوانهم .. ومن كان منهم أوغل فى الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية وتزايد ذلك فيهم فى الأبعد إلى الشمال »(٣) . ويرتبط ما سبق بتأثير البيئة وتكيف الكائنات . ويفسر المسعودى ذلك بقوله « غلب طبع كل أرض على ساكنها كما نشاهد الحرار السود والأغوار ، وحشها إلى السواد ووحش الرمال البيض على ذلك اللون ، فإن كانت الرمال أحمر فوحشها عفر وهو لون التراب ، وكذلك وحش الجبال من الأراوى وغيرها يكون على ألوان تلك الجبال إن حمرا وإن بيضا وإن سودا »(٤) .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩ــ٨٦ .
(٢) عبد الفتاح وهيبه ، جغرافية الإنسان ، مرجع سابق ، ص ١٥ــ٢٠ .
(٣) ت. ص ٣٨ .
(٤) ت. ص ٤٣ .

القسم الثانى
الأدب الجغرافى الواقعى
(أدب الرحلات)

إن من يحاول متابعة المسعودى فى رحلاته الواسعة التى استغرقت من عمره أربعة وثلاثين عاما وانتظمت مملكة الإسلام وما جاورها من بلاد ، يواجه صعوبات تحول دون وضوح الرؤية . من تلك الصعوبات أنه لم يتقيد بخط سير فى كل رحلة ولم يعن بتسجيل مراحلها ولا بتوقيتاتها ، كما لم يخبرنا بأماكن نزوله وإقامته إلا ما ندر . ويزيد من صعوبة تتبع سياحته كذلك استطراداته الكثيرة بل خروجه عن الموضوع فى أكثر من موضع . يضاف إلى ذلك أنه لم يحدد بوضوح أى البلاد التى زارها وتلك التى اعتمد فى وصفها على الرواية أو النقل .

ومن هنا يرى بعض من عرض لهذه الرحلات أنه لم يزر سرنديب (سيلان) ولا الصين ، ولا جزيرة رامنى (سومطرة) ، وأنه لم يعبر البحر المتوسط ليطوف بلاد المغرب العربى والأندلس . هذا فضلا عن أنه لم يقم بسياحة فى بلاد الدولة البيزنطية .

ولقد بُذل جهد كبير فى تحديد مراحل رحلاته وتحقيق ما جاء فى وصف ما شاهده أو كتب عنه معتمدا على الرواة . وفيما يلى استعراض لرحلاته أو أدبه الجغرافى الواقعى كما جاء فى « التمهيد » .

مرحلة الرحلات المبكرة

(٣٠٣ ــ ٣٠٥ هـ / ٩١٥ ــ ٩١٧ م)

البحار التي ركبها ــ صفاتها وما بها من ثروات :

لما كان البحر هو المجال الأوسع فى تنقلاته المبكرة فسنبدأ بالحديث عن البحار التى ركبها ونثنّى بالبر الذى قطعه . لم يركب المسعودى إلا بحرين من البحار السبعة التى جاء ذكرها فى كتاباته ألا وهما : البحر الحبشى وبحر لاروى . ونتردد فى قبول دعواه بأنه أبحر فى بحر الصين وحال أيضا فى بلاد الصين لعدم وجود دليل قوى على ذلك فيما وصل إلينا من كتاباته(١) . وهو يرى أن بحر الزنج (الذى أبحر فيه مرتين) جزءٌ من مياه بحر لاروى (شكل ١) الذى يمثل بدوره قسما من البحر الحبشى(٢) . ويعرِّف البحر الحبشى « بأنه البحر الذى يضم بحار الصين والهند والسند والزنج والبصرة والأبلة وفارس وكرمان وعمان والبحرين والشِّحر واليمن وأيلة والقلزم من بلاد مصر والحبشة » . ويشتهر بكثرة خلجانه وجزره وآطامه (المخاريط البركانية) التى ترى من البحر كما يعرف بموانيه وشطوطه المرجانية وبمغاصات اللؤلؤ فيه .

أما البحار التى تطل عليها شواطىء جنوب شرق آسيا فهى : « بحار الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهها غير منفصلة .. إلا أن هيجانها وركودها مختلف » . ويعلل ذلك عن علم بقوله لاختلاف مهاب رياحها وآثار ثورانها وغير ذلك(٣) . « فبحر فارس الذى ركبه تكثر أمواجه ويصعب ركوبه ، عند لين بحر الهند واستقامة ركوبه وقلة أمواجه ، وتقل أمواجه ويسهل ركوبه عند ارتجاج بحر الهند واضطراب أمواجه وظلمته وصعوبة مركبه » . ويبدو أنه أطلع على مثل هذه المعلومات فى كتاب أبى معشر المنجم المترجم « بالمدخل الكبير إلى علوم النجوم »(٤) ، ويضيف أن أول ما تبتدىء

---

(١) جاءت اشارته إلى ركوبه بحر الصين عند قوله : « وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن ــ مروج الذهب » ــ جـ ١ ص ١٠٨ . ومع ذلك فنرجح أنه لم يزر الصين ذاتها .

(٢) م. جـ ١ ص ١٤٧ .

(٣) شرحه .

(٤) شرحه .

صعوبة الملاحة فى بحر فارس فى أول الخريف . ولا يزال تكثر أمواجه فى كل يوم إلى أن تبلغ أشدها فى أواخر هذا الفصل فتمتنع الملاحة . ثم يلين ابتداء من فصل الربيع فيركبه المسافرون . لكنه يستطرد فيشير إلى أن هذا البحر صالح طول العام للملاحة فى المسافة بين عُمان وسيراف ومن سيراف إلى البصرة ولا يتجاوز فى ركوبه غير هذين الموضعين . ويرجع ذلك إلى هدوء الريح وضعف الأمواج فى أغلب أيام السنة .

أما إذا أراد مركبٌ أن يبحر من عمان إلى الهند عبر هذا البحر ــ بحر فارس ــ فلابد أن يكون مركباً معززاً وحمولته يسيرة تدفعه ريح شتوية نحو سواحل الهند » هكذا استطاع ملاحو عرب الخليج أن ينفذوا إلى المحيط الهندى المتلاطم الأمواج معتمدين بعد الله على الريح المواتية . ويضيف الرحالة « ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها .. وقد عُلم ذلك بالعادات وطول التجارب »(١)

ويمتاز بحر فارس بمغاصات اللؤلؤ قرب مياه قطر وعمان وغير ذلك من هذا البحر . ويذكر أن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئا من اللحمان إلا السمك والتمر وغيرهما من الأقوات .. ويشقون آذانهم لخروج النفس منهما بدلا من المنخرين لأن المنخرين يجعل عليهما شىء من الدبل(٢) يضمها كالمشقاص . وما يجعل فى أذانهم من القطن فيه شىء من الدهن . فيعصر من ذلك الدهن اليسير فيضىء لهم بذلك فى البحر ضياء . ويضيف أنه خوفاً من بلع دواب البحر لهؤلاء الغاصة يطلون أقدامهم وسوقهم بالسواد الذى تنفر منه هذه الدواب »(٣) .

وأول بحر فارس خشبات منصوبة عند البصرة وهى بمثابة علامات للمراكب إلى عمان وقصبتها (تسمى سنجار) ومنها إلى المسقط وهى قرية

---

(١) م. جـ ١ ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٨ . والدبل قطعة من ظهر السلحفاء البحرية .

(٣) شرحه ص ١٤٩ . كان مبحرا فى بحر الزنج فى طريقه إلى بحر فارس فى عام ٣٠٤ هـ / ٩١٧ م .

راجع كتاب « سلسلة التواريخ » الذى نشره لانجل وضم رحلة التاجر سليمان وإضافة أبى زيد السيراف ــ مرجع سابق ص ١٠ــ٣٥ .

يستقى أرباب المراكب الماء من آبار عذبة . ومن مسقط تبحر المراكب إلى رأس الجمجمة (رأس الحد) وهى آخر بحر فارس من جهة الجنوب . وبحر فارس ينتهى إلى بلاد الأُبلة وعبدان من أرض البصرة . وهذا الخليج مثلث الشكل ينتهى أحد زواياه إلى بلاد الأُبلة وعليه مما يلى المشرق ساحل فارس من بلاد ماهربان ، ومدينة حسان واليها تضاف الثياب الحسانية ثم بلاد سيراف وبلاد ابن عمارة ثم ساحل كرمان ثم يلى ساحل كرمان ويتصل به على ساحل هذا البحر بلاد مكران وهذه كلها أرض نخل . ويقابل ما ذكره من ساحل فارس مكران بلاد البحرين وجزائر قطر وبلاد عمان وأرض مهرة إلى رأس الجمجمة . ويمتد الساحل غرباً إلى أرض الشحْرْ والأحقاف ، وفى هذا البحر جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك[1] وجزيرة أوال وفيها خلائق كثيرة من العرب ، وجزيرة لافت وفيها خلق من الناس وقرى وعمارة متصلة . وعلى الجانب الغربى من البحر تقوم مدينة الزاره والقطيف من ساحل هَجَرْ .

ولاحظ أن مواضع فى مياه القسم الجنوبى من هذا البحر (الذى تطل عليه بلاد عمان وسيراف) لابد للمراكب من الجواز عليها والدخول فى وسطها فتخطىء وتصيب[2] . كما شاهد على جانبى البحر فى هذه المواضع جبال سود ذاهبة فى الهواء ولا نبات عليها ولا حيوان .

وينتقل بنا الرحالة من بحر فارس والقلزم إلى بحر لاروى وهو بحر عظيم لا يُدْرى عمقه ولا يحصر طوله وعرضه بل أنه ليس بين البحور التى ينقسم إليها البحر الحبشى أكبر منه ولا أشد وفى عرضه يقع بحر الزنج[3] .

وكما استهوى المسعودى اللؤلؤ فقد استهواه العنبر وغيره من السلع لترفّيه ، لكنه ينبه إلى أنه فى هذا البحر قليل وأن أكثره يقع فى مياه بحر الزنج وساحل

---

(١) يقول ياقوت عن هذه الجزيرة هى جبل عال فى وسط البحر وهى من أعمال فارس — معجم البلدان جـ ١ ص ٣٣٧ .

(٢) م. جـ ١ ص ١١٠—١١١ .

(٣) لم يشر المسعودى إلى مدينة عدن على بحر الزنج كمرسى تجارى كبير (فى القرن ٤ هـ /١٠ م) بين افريقية وبلاد العرب ونقطة ارتكاز تجارية بين الهند والصين . وقد سماها المقدسى « دهليز الصين » — راجع آدام متز « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة — القاهرة ١٩٥٧ .

الشحّر من أرض العرب . وأهل الشحر ناس من قضاعة وغيرهم من العرب وهم مهرة لهم نُجب يركبونها بالليل .. فإذا أحست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه فيتناوله الراكب . وهو من أجود العنبر ، ولا يفضله إلا عنبر جزائر بحر الزنج وساحله[1] .

ومن الخلجان التى تخرج من بحر الزنج وهو جزء من بحر لاروى غير بحر فارس بحر القلزم . وقد أبحر المسعودى فى هذين البحرين فى نحو عام (٣٠٤ هـ / ٩١٧ م) ، وقد سبقت الإشارة إلى ما رآه فى بحر فارس ، أما بحر القلزم فينتهى إلى مدينة القلزم من أعمال مصر[2] . وعليه مدينة أيلة والحجاز وجدة واليمن . وهو بحر ضيق فى طرفيه عريض فى وسطه . وتقع قبالة الحجاز وبلاد أيلة على الجانب الغزبى من بلاد العلاقى وبلاد العيذاب وأرض البجه ثم أرض الحبشة[3] ، ويصف هذا البحر فيقول :

« وليس فى البحار وما ذكرنا من الخلجان مما أحتوى عليه البحر الحبشى ، أصعب ولا أكثر حيالا (مناقع المياه فى الوديان) ولا أسهك رائحة ولا أقحط ولا أقل خيراً فى بطنه وظهره من بحر القلزم »[4]

وقد لاحظ اثناء إبحاره فيه ، أنه دون سائر البحور لا تسير فيه المراكب إلا نهاراً . « فإذا جنَّ الليل أرْسَت فى مواضع معروفة .. لكثرة جباله وظلمته ووحشته » . ولكن ربما كان السبب الحقيقى الذى لم يفطن إليه المسعودى هو كثرة الشعاب المرجانية التى تتحطم عليها هذه المراكب إذا لم تتجنبها . ثم هو ليس مما اتصل به من بحر الهند والصين وغيره فى شىء ، وهو بالضد من ذلك . لأن بحر الهند والصين فى قعره اللؤلؤ وفى جباله الجواهر ومعادن الذهب والفضة وفى منابته الأبنوس والخيرزان .. والساج وأشجار الكافور[5] والطيب والعنبر » وأشياء أخرى كثيرة ليست بهذا البحر[6] .

---

(١) م. جـ ١ ص ١٥٠ .
من الواضح أن المسعودى لم يطلع على كتب معاصره ابن الحائك الهمدانى (ت ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) خاصة كتاب صفة جريرة العرب الذى جمع فيه معلومات قيمة تتصل بالقسم الجنوبى من بلاد العرب . نشره بالقاهرة محمد بن عبد الله بن بليهد النجدى عام ١٩٥٣ م .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٣) شرحه ص ١١٢ .

(٤) م. جـ ٢ ص ٢٨ .

(٥) شرحه ص ٢٩ .

(٦) المصدر السابق ص ١٠٩ .

جنوبى الجزيرة العربية :

ويعود فيحدثنا عن جنوبى الجزيرة العربية التى ارتحل فيها ارتحالاً واسعاً وقحولة بلاد عدن والشحّر فهى لا تنبت إلا شجيرات البخور . ورأى كيف يلتقط أهل الشحّر العنبر على مقربة من البحر مستعينين بنجبهم السريعة(١) . ومن المحتمل أنه ذهب إلى إقليم كهلان بعد أن زار سد مأرب فى اليمن . وقد لاحظ كثرة انتشار القردة بين بلاد صنعاء وكهلان . وعلم أنه ليس أحسن ولا أخبث ولا أسرع قبولاً للتعليم من قردة اليمن(٢) ، كذلك زار صنعاء وعندها شاهد خرائب قصر غمدان . وعلم بوجود جزيرة تقع إلى الجنوب مَن عدن تعرف بسُقطره تشتهر بنبات الصبر الذى لا يوجد إلا فيها ولا يحمل إلا منها . وقد اكتشف لدهشته أن فيها قوماً من اليونانيين يحفظون أنسابهم وتأوى إليهم بوارج الهند التى تقطع على المسلمين الذين يريدون الصين والهند(٣) .

الجـــــــزر :

وفى بحر لاروى هذا سمع عن الجزر التى تقع قبال ساحل الهند الجنوبى الغربى وأطلق عليها إسم «الديبجات» (شكل ١) (جزر المالديف » وهى فى رأيه تفصل بين بحر لاروى وبحر هركند (المحيط الهندى) . وعلم أنها جزائر كثيرة تبلغ نحو ألفى جزيرة فى بعض الأقوال .. وملكتها امرأة وبذلك جرت عادتهم من قديم الزمان لا يملكهم رجل . والعنبر يوجد فى هذه الجزائر أيضاً يقذفه البحر إذا ما هاج(٤) .

ويذكر أن غير واحد من نواخذه السيرافيين والعمانيين أخبره أن العنبر ينبت فى قعر هذا البحر ويتكون كتكون أنواع الفطر . ويعود فيصف أهل هذه الجزائر بالكثرة وتوحد كلمتهم وأن غذاءهم من الزانج (ثمر شجر جوز الهند) وأنه ليس يوجد بين سكان الجزر ألطف صنعة من أهل هذه الجزائر فى سائر

(١) المصدر السابق ص ١١٢ .
(٢) م. جـ ٢ ص ٢٨ .
(٣) شرحه ص ٢٩ .
يتردد نفس هذا الخبر فى كتاب « سلسلة التواريخ » مرجع سابق ، ص ١٣٣ .
(٤) م. جـ ١ ص ١٥١ــ١٥٣ .

المهن والصنائع والآلات وغير ذلك . وبيوت أموال مِلكتها الودع . وهذا يذكرنا بما شاهده المكتشفون الأوربيون إبان عصر الكشوف الجغرافية عندما نزلوا سواحل أمريكا واستراليا .

ويذكر أن آخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب ويليها جزائر أخرى تظهر لمسافات طويلة تعرف بجزائر الرامين أو الرامنى[1] . وهى جزائر معمورة وفيها ملوك وفيها معادن كثيرة ويحمل من كل هذه الجزائر التى سبقت الإشارة إليها خشب البَقَمّ والخيزران والذهب . ويتابع الرحالة وصفه لبقية الجزر فى هذه المياه الجنوبية فيشير إلى جزائر لنجباوس (نيكوبار وما جاورها) فى بحر كَلِه (الجزء الشرق من خليج بنغال وما والاه من خلجان جهة الشرق) ، وفى هذه الجزائر أمم عجيبة الصدر عراة يخرجون فى القوارب عند اجتياز المراكب بهم ، معهم العنبر والنارجيل (جوز الهند) فيتعاوضون بالحرير وشيء من الثياب[2] . وحدثه أرباب المراكب عن جزائر أخرى ربما تكون جزائر أندمان وفيها أناس سود عجيبو المنظر ملفوفو الشعور[3] .

إعصار التيفون فى بحر هركند :

ومن الظواهر المناخية التى وصفها له النواخذة فى خليج البنغال إعصار « التيفون » Typhoon وما يحدثه فى البحار الجنوبية من ثورة فى مياه البحر وتخريب فى البر ، فيقول فى ذلك « وذكر لى جماعة من النواخذة أنهم ربما رأوا فى هذا البحر سحاباً ابيض قطعاً صغاراً يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر فإذا اتصل به علا البحر لذلك ارتفعت منه زوابع عظيمة ، لا تمر زوبعة منها بشيء إلا اتلفته ، ويُمْطَرون عقيب ذلك مطراً سهكاً فيه أنواع من قذى البحر »[4] .

---

(١) يرجح أن تكون هى جزيرة سومطرة وما حولها من جزائر .
(٢) م. حـ ١ ص ١٥٢ .
(٣) شرحه ص ١٥٣ .
(٤) شرحه ــ التيفون كلمة ذات أصل عربى معناهُ « الطوفان » .

بحار أخرى بعيدة وجزائر :

ويشير المسعودى إلى بحار أخرى أبعد تقع جهة الشرق من جزر لنجبالوس (نيكوبار) هى : « كِلّه » أو كلاهبار و « كردنج » و « الصنف » وهى بحار تحيط الأرخبيل الإندونيسي وتطيف بسواحل ماليزيا وبرما[1] ، (شكل ١) . أما بحر الصين فهو آخر البحار الشرقية وأسماه « بحر صنجى » ومن المشكوك فيه أنه ركب هذه البحار كلها والأرجح أن يكون حديثه عن بعضها وخاصة بحر الصين قد استند فيه إلى روايات أرباب المراكب وإلى أقوال صديقه أبى زيد السيرافى وما علمه عن رحلة التاجر سليمان (ق ٣ هـ / ٩٠ م) ، والأخير من رواد الرحلات البحرية فى صدر الإسلام . وربما أطلع المسعودى أيضاً على كتاب « عجائب الهند »[2] لصاحبه الرام هرمزى (٣٠٠ــ٣٤٢ هـ / ٢١٩ــ٩٥٣ م) . وقد تضمن هذا الكتاب معلومات طريفة ومفيدة عن جزيرتى جاوة وسومطرة والصين والطرق البحرية الموصلة إليها وبحر « كِله » الذى يحيط فى جانب منه بجزيرتى سومطرة وملقا .

وبحر « كِله » بحر قليل الماء ولذا فهو أكثر آفات وأشد خبثاً وهو كثير الجبال والجزائر والممرات البحرية (الصراوى) من ناحية ويقابله من الناحية الأخرى بحر هركند (المحيط الهندى) . ويصف بحر كردنج (فى نطق آخر كدرنج) بأنه كثير الجبال والجزائر وفيه الكافور وهو أيضاً قليل الماء كثير المطر لا يكاد يخلو منه . وفيه أجناس من الأمم منهم جنس يقال له « الفنجب شعورهم مفلفلة وصورهم ومناظرهم عجيبة ، يتعرضون فى قوارب لهم للمراكب إذا اجتازت بهم ويرمون بأنواع من السهام سُقيت بالسم »[3] . ومن وصفه يمكن القول إنه يقع إلى الغرب من شبه جزيرة الملايو[4] . أما بحر الصنف فيشتمل على خليج سيام والمياه القريبة ويتصل شمالاً ببحر الصين . فى هذا البحر « مملكة المهراج » ملك الجزائر ومُلْكه لا يضبط كثرة ولا تحصى

---

(١) م. جـ ٢ ص ١٥٢ .

(٢) راجع : الرام هرمزى ــ كتاب عجائب الهند ــ مرجع سابق .

(٣) شرحه م. جـ ٢ ص ١٥٣ ــ أشارة إلى نفس الظاهرة التاجر سليمان ، أنظر « سلسلة التواريخ » مرجع سابق ص ١١ــ١٢ .

(٤) شرحه ه

جنوده . ويحمل من بلاده أنواع الطيب والأفاوية .. ومن جزائره الزانج والرامنى أو الرامين ، وعمائرها متصلة . ثم يذكر أنه فى أطراف جزائره جبال فيها أمم كثيرة .. آذنهم مخرمة ووجوههم .. مُطْرقة . وينطبق وصف الوجوه على الوجوه المغولية الملاوية التى تنتشر فى هذه الجزر . أما السطح فجبلى تعلو قممه فى السماء وتكثر بينها البراكين التى تقذف بأشد ما يكون من صوت الرعد والصواعق . ويشير إلى علاقة هذا البحر بالمحيط الهادى فيقول : « وجزائره تتصل ببحر لا تدرك غايته ولا يعرف منتهاه مما يلى بحر الصين »(١) .

ويسمى بحر الصين « بحر صنجى » (شكل ١) . ويصفه بأنه بحر خبيث كثير الموج والخبّ (الشدة العظيمة) . ويحكى أن أهل المراكب والتجار من السيرافيين والعمانيين يتفقون على أنه إذا ما حدث الخب وأراد البارى جل وعلا خلاص عباده ، فإن البشارة بالنجاة تظهر على صورة طائر يتوقد نوراً فى أعلى « الصارى » فيرى المسافرون البحر يهدأ والخب يسكن .

ويعلق المسعودى على ذلك بقوله « ما ذكرناه فممكن غير ممتنع ولا واجب » . وهو قول مسلم يؤمن بقضاء الله وقدره . وفى هذا البحر جبال

---

(١) م. جـ ١ ص ١٥٤ .
ثمة خلاف على مواقع هذه البحار وأسمائها وسنحاول قدر الإمكان تحديد مواقعها . هذه البحار السبعة التى أشار إليها المسعودى هى كما يوضح (شكل ١) :

١ــ بحر لاروى هو بحر لارى Larvey أو لار Lar . وامتد من دلتا نهر السند إلى جزر كومورين فى أقصى جنوبى شبه الجزيرة الهندية . وكانت الأراضى الواقعة عند مدخل الخليج العربى التى تمتد حتى ساحل كمباى (كنباية عند المسعودى) تسمى لار .
٢ــ بحر فارس هو البحر الذى تطل عليه السواحل الشرقية لشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس وقد شمل هذا البحر الخليج العربى وبحر مكران .
٣ــ بحر هركند يطلق عليه حاليا المحيط الهندى وتطل سرنديب (سيلون) وجزائر الرامنى (سومطرة) وجزر نيجابلوس (نيكوبار) وأندمان .
٤ــ بحر كلاهبار (أو كِلة) تحده شبه جزيرة ملقا (الملايو) وجزائر الرامنى (سومطرة) .
٥ــ بحر كدرنج تطل عليه شبه جزيرة الملايو من جهة الشرق وهو كثير الجزر تطل عليه كثير من الجبال العالية .
٦ــ بحر صنف يمثله اليوم خليج سيام .
٧ــ بحر صنجى أو بحر الصين وهو بحر كثير المخاطر ، خاصة « بوابات الصين » ــ عن الجغرافية العربية ، ص ١٤٩ــ١٥١ ، مرجع سابق .

كثيرة لابد للمراكب من النفود بينها وتسمى « بوابات الصين » . وليس بعد الصين مما يلي البحر ممالك تعرف ولا توصف إلا بلاد السيلى (اليابان أو كوريا) وجزائرها التى لا يخرج منها إلا النادر من سكانها ودلك « لصحة هوائها ورقة مائها وجودة تربتها وكثرة حيرها »[1] .

بحر الزنـج :

وبحر الزنج الذى ركبه المسعودى وشاهد فيه الأهوال « ذو موج عظيم كالجبال الشواهق . موج أعمى يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية »[2] .

ولا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد كتكسر امواج سائر البحار ، ثم هو موج مجنون يبتلع المراكب ومن فيها ، ومن الواضح أن هذا الموج من النوع العملاق الذى تسببه عواصف بحرية ويظهر فى المحيطات والبحار المكشوفة كبحر الزنج هذا . ويضيف الرحالة « ويركب النواخذة وأرباب المراكب من العمانيين والسيرافيين البحر من سجار (قصبة بلاد عمان) وسيراف (ميناء على الساحل الإيرانى من الخليج) فإذا توسطوا البحر دخلوا تلك الأمواج العاتية التى ترفعهم وتخفضهم حتى ينتهون إلى جزيرة قنبلو (جزيرة زنجبار) فى بحر الزنج وربما يتابعون إبحارهم الى بلاد سفالة والواق واق من أقاصى أرض الزنج »[2] . وليس الموج المجنون هو الخطر الوحيد المحدق بأرباب المراكب . فهناك سمك « الأوال » (الحوت الأسود) الذى تفزع منه المراكب فى الليل وفى النهار وتضرب له الدبادب والخشب لينفر من ذلك . وطول السمكة نحواً من أربعمائة ذراع .. وربما يهز البحر فيظهر شيئا من جناحه فيكون كالقلع العظيم ، وهو الشراع ، وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء فى الجو أكثر من ممر السهم[3] . وحرصا منه على أمانة الكلمة ينهى حديثه بقوله :

---

(١) م. جـ ١ ص ١٥٤ .

(٢) شرحه ص ١٠٨ .

(٣) اختلفت الآراء حول هده الجزيرة فرأى يقول إنها أكبر جزر القمر ورأى ثان يذكر أنها جزيرة زنجبار وثالث يزعم أنها جزيرة مدغشقر. وأرجح أنها جزيرة زنجبار لأنها كما يخبرنا المسعودى قريبة من الساحل ويقطها مسلمون .

(٤) م. جـ ١ شرحه .

وفى « بحر الزنج أنواع من السمك بصور شتى ولولا أن النفوس تتنكر ما لم تعرفه وتدفع ما لم تألفه لأخبرنا عن عجائب هذا البحر وما فيه من الحيتان والدواب وغير ذلك من عجائب المياه »[1] .

بين السودان والزنج :

ويفرق المسعودى بين السودان والزنج فالسودان هم طائفة قادمة من جهة الشرق حتى قطعت نيل مصر واتجهت بعد ذلك إلى المغرب . وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم وغانه وغير ذلك من أنواع السودان . وأما الزنج فطائفة اتجهت مُيمنَّة بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجة والزنج . ثم قطعت الزنج دون سائر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذى يصب إلى البحر الزنج فسكنت ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة وهى أقاصى بلاد الزنج التى تقصد إليها مراكب العمانيين والسيرافيين[2] . والقول بوجود خليج يخرج من النيل ويصب فى بحر الزنج ، قديم قال به بطلميوس ومن لحقه من الجغرافيين الروم والعرب . فليس ثمة فرع من النيل يصب فى هذا البحر (بحر الزنج) وإنما هناك نهيرات صغيرة تعبر أرض الصومال إلى هذا البحر[3] . وملك الزنج يسمى « وقليمى » وهو يملك ملوك سائر الزنج ، ويركب فى ثلثمائة ألف فارس . ودواب الزنج البقر ، وليس فى أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل ولا يعرفونها وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد .. ومنهم أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضا . والفيلة فى بلاد الزنج فى نهاية الكثرة وحشية وغير مستأنسة . ولا تستعمل الزنج منها شيئا فى الحرب بل تقتلها لأخذ أنيابها ويحمل الأكثر منها إلى بلاد عمان ومن عمان إلى أرض الصين والهند . ويعقب الرحالة على ذلك فيقول « ولولا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيراً »[4] .

أما تفسير اسم ملك الزنج « وقليمى » فمعنى ذلك ابن الرب الكبير[5] لأنه اختاره لملكهم ، والعدل فيهم فمتى جار عليهم فى حكمه وحاد عن الحق قتلوه . والزنج أولو فصاحة .. وليس لهم شريعة يرجعون إليها .. بل رسوم

(١) م. جـ ٢ ص ١٠٩ — لم يشر المسعودى أنه زار بلاد الزنج وعليه فقد حصل على معلومات عنها من مطالعاته ، ومن الرواة من أصحاب التبصر .

(٢) شرحه ص ٦ .

(٣) أشهر هذه النهيرات هو نهير جوبا .

(٤) م. جـ ٢ ص ٦—٧ .

(٥) شرحه .

لملوكهم وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم . وسمع من الرواة أن أغلب أقواتهم الذرة ونبتٌ يُقلع من الأرض كالكمأة .. ومن غذائهم أيضا العسل واللحم .. وجزائرهم فى البحر كثيرة ينمو فيها النارجيل الذى يعم أكله سائر السكان . وجزيرة قنبلو (زنجبار) إحدى هذه الجزر وتقع على بعد يوم أو يومين من ساحل الزنج وفيها خلائق من المسلمين ويتوارثها ملوك منهم(١). أما غير هؤلاء ممن أمعن فى الغرب وأطلق عليهم الحبشة وهم سودان غربى افريقية فمنهم الزغاوه واللوكو والقراقر ومديده وكثير من الجماعات الأخرى . ولكل واحد من هؤلاء ملك ودار مملكة . ويوضح المسعودى أنه أتى على ذكر جميع أجناس السودان وأنواعهم ومساكنهم ومواضعهم فى كتابه « أخبار الزمان » فى الفن الأول من جملة الثلاثين فناً التى احتواها .

الهند والسند :

وفى أثناء هذه الرحلات المبكرة زار الهند والسند قادماً من فارس عن طريق مكران وذلك بعد أن قرأ عن هذه البلاد وبعد أن سمع من أهل التبصر والخبرة أخباراً عنها. والمرجح أنه بدأ بزيارة مماليك الهند. وقد جال لبعض الوقت جولانا واسعا فى إقليم كونكان إلى الشمال من بُمباى الحالية .

وكان هذا الأقلم كما يقول قسما من مملكة اللاّر (Vallabharai) وعاصمتها

---

(١) المصدر السابق ص ١٧ .
بقى نشاط الإغريق والرومان فى إفريقية مقصورا على الأقاليم الساحلية المطلة على البحر المتوسط وأحيانا الإطار الصحراوى الذى يحيط بها وذلك بما فيه مصر . ولكن العرب كالنواقد أقاموا قبل ظهور الإسلام مراكز عمرانية على سواحل افريقية الشرقية وربما توغلوا قليلا فى الداخل . ولكن ما أن فتح الله مصر على العرب فى أيام خلافة عمر بن الخطاب حتى اتجهوا فاتحين غربا إلى أقصى القارة وعبروا مضيق جبل طارق وفتحوا الأندلس وفى نفس الوقت ضربت شعبة منهم فى أغوار الصحراء تدفعهم حمية الإسلام والرغبة فى نشر أجنحة التجارة إلى ما وراء افريقية جنوبى الصحراء وكان لهم ما أرادوا . ونشطوا على ساحل افريقية الشرقى رغم المخاطر وواصلوا تقدمهم جنوبا حتى ساحل ناتال فى اتجاه جنوبى افريقية . ونفضتل هذا النشاط البحرى فى بدء الفتوحات الإسلامية ملك العرب بلاد الصومال وممبسة وزنجبار وومورمبيق وجزائر القمر . ومما يدل على مدى اهتمام العرب بافريقية ظهور كتاب المهلبى المتعلق بالسودان فى أواخر القرن الرابع للهجرة (١٠ م) وهو كتاب فريد فى بابه عوّل عليه ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) عندما كتب عن أجناس السودان ومن أسف أنه فقد . راجع : جغرافية العرب فى العصور الوسطى — مرجع سابق ص ٨ .

المانكبر (إلى الجنوب من جولبرجا Gulbarga فى حيدرأباد) والتى يغلب على الظن أنه لم يزرها . أما المدن التى زارها فكان أهمها تشول (صيمور) وسندان (أو سنداره) وسوبارة (أو صوفاره)(١) (شكل ١) ، وكان يسكن تشول حينما زارها زهاء عشرة آلاف مسلم بينهم الكثير من التجار وهم من أخلاف المسلمين الذين ولدوا وعاشوا فى الهند ومن العرب المقيمين الذين قدموا أصلا من سيراف وعمان والبصرة وبغداد وأماكن أخرى . ومن الجدير بالذكر أنه كان لهذه الجالية الإسلامية رجالها الذين يعينون من قبل الحاكم لإدارة شئونهم والعناية بأمورهم(٢) .

وانتقل الرحالة بعد ذلك إلى اقليم « كنباية » فى عام ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م(٣) وهى من أرض الهند كما يقول وتشتهر حاضرتها بالنعال الكنبائية ، وتقع على خور من أخوار البحر (حلجان البحر) وهو أعرض من النيل أو دجلة أو الفرات عليه من المدن والضياع والعمائر والجنان والنخيل والنارجيل والطواويس والببغاء وغير دلك من طيور الهند(٤) . ويشير إلى ظاهرة المد والجزر فى خليج كنباية فيقول « ويجزر الماء عن هذا الخليج حتى يبدو الرمل .. وقعر الخليج قد صار كالصحراء ثم أقبل المد من نهاية الحور (الخليج) كالخيل فى الحَلْبَة .

ويقارن هذا المد بالمد الذى يرد بين البصرة والأهواز .. ويسمى هناك « الذئب » بسبب ما يحدثه من ضجيج ودوى وغليان عظيم يفزع منه أصحاب السفن(٥) .

---

(١) يدكر أنه كان بمدينة اصطخر بفارس سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م (ت.' ص ١٠٨) .

(٢) م. حـ ١ ص ١٦٩ .
على الرغم من عزوة الاسكندر للهند إلا أن معرفة العالم بهدا القطر ظلت ضئيلة حتى قدوم العرب المسلمين الذين افتتحوا السند وحوبى اقليم النجاب العربى . فمنذ هذا التاريخ بدأ العالم العربى يقوى صلته بهذا العالم الواسع الجديد عن طريق التحارة ثم الاستيطان . وقد أمدنا كل من التاحر سليمان وأبو ريد السيراق بأقدم معلومات عربية عن حغرافية الهند وأحوالها الاقتصادية والاحتماعية .

(٣) شرحه ص ١٧٠. Amed, Kafis- Muslim Contribution to Geography, Lahore 946, pp. 30-40.

(٤) شرحه

(٥) م. حـ ١ ص ١١٧ .

الهند وأهلها :

وعلى الرغم من أن المسعودى لم يجل كثيراً داخل الهند إلا أنه كان يدرك تماماً مدى ضخامة هذا القطر وحصوبته إذ يصفه فيقول « وأرض الهند أرض واسعة فى البر والبحر والجبال ومُلكهم متصل ببلاد الزانج وهى بين مملكة الهند والصين وتضاف إلى الهند[١] . والهند متصلة مما يلى الجبال بأرض خراسان والسند وأرض التبت . وبين ممالك الهند تباين وحروب ولغاتهم مختلفة واراؤهم غير متفقة »[٢] . وعلى الرغم من سواد بشرتهم فقد ميزهم عن السودان والزنج فيقول فى موضع آخر « والهند فى عقولهم وسياساتهم وحكمتهم ... وصفاء أذهانهم بخلاف سائر السودان والزنج »[٣] . مما يوضح أنه كان على علم بمدى عطائهم فى مجال الفكر البشرى .

بلاد السند :

ومن غير الواضح كيف بدأت رحلته إلى بلاد السند لزيارة الثغور الإسلامية والحديث عن قشمير وإن كان قد حدد تاريخها بعام ٣٠٤ هـ / ٩١٢ م . ولكن إذا ما تغاضينا عن استطراداته الكثيرة وأخذنا بالسياق العام لحديثه عن السند وماوالاه شمالا من بلاد قشمير (كشمير) فإننا سنتتبع مسيرته من الشمال إلى الجنوب . زار بداية مدينة بوورة[٤] حاضرة ملك القنوج وتقع عند منبع أحد روافد نهر « مهران السند » . وهنا يذكرنا بالخطأ الذى وقع فيه الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) عندما زعم أن هذا النهر من النيل . فقد عاين بنفسه إنعدام الصلة بينهما ، بل بينه وبين أى نهر آخر . وفى هذا المقام يشير إلى مدى اقتناعه بأهمية المعاينة والتقصى بقوله : « وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نُمِىَ إليه من الأخبار عن اقليمه كمن قسَّم عمره على قطع الأقطار ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار »[٥] .

(١) م. جـ ١ ص ١٧٥ .
(٢) شرحه .
(٣) شرحه ص ٨٢ .
(٤) شرحه ص ١٦٦ بوورة مدينة لم يأتِ على ذكرها ياقوت فى معجمه والأغلب أنها كلمة مُحرفة .
(٥) شرحه ص ١٢ .

أما ملك القنوج فإن مملكته مترامية الأطراف كثيرة المدن والقرى والضياع مما لا يدركه الأحصاء والعدد بألف ألف وثمانمائة ألف قرية بين أنهار وشجر وجبال ومروج[1] . ومن بلاد القندهار فى السند وحبالها يخرج النهر المعروف « برائد » وهو أحد الأنهار الخمسة التى منها نهر مهران السند . ويخرج نهر آخر من الخمسة من بلاد السند وجبالها ويجتاز بلاد القندهار ويعرف « بيهاطل » . ثم يشير إلى رافدين آخرين لنهر يهران السند أحدهما (نهر كابل) يأخذ منابعه من بلاد كابل وجبالها فى أفغانستان) ، ويخرج الثانى من بلاد قشمير ويسمى « الرانى »[2] .

بلاد قشمير :

ويقف بعد ذلك ليصف لنا بلاد قشمير أستناداً إلى ما طالعه عنها فيقول « وقشمير هذه من ممالك السند . وهى مملكة عظيمة حصينة يحتوى مكانها على مدن وضياع نحو من ستين ألفا إلى سبعين ألفا . وقد وجدها مملكة منيعة يغلق عليها باب واحد وذلك لأنها تقع فى جبال شوامخ لا سبيل للرجال أن يتسلقوا عليها ولا للوحوش أن يلحق بعلوها ولا يلحقها إلا الطير . وتشق الجبال أودية وعرة تجرى بالمياه وتغطى جوانبها أشجار وغياض »[3] .

ثغرا الملتان والمنصورة :

ويأخذنا بعد ذلك جنوبا إلى الملتان فى غربى البنجاب وهو ثغر من ثغور المسلمين الكبار دخله بعد الثلاثمائة للهجرة والملك بها أبو اللهاب المنبه بن أسعد القرشى[4] . وحول هذا الثغر من ضياعه وقراه عشرون ومائة ألف قرية مما يقع عليه الإحصاء والعد . ولعل أهم ما جذب انتباهه فى هذا الثغر الصنم المعروف بالمولتان ، يقصده السند والهند من أقاصى بلادهم بالنذور والجواهر والعود وأنواع الطيب . وأكثر أموال صاحب المولتان هذا مما يحمل إلى هذا

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٦ .

(٢) لروافد نهر السند فى الوقت الحاضر أسماء مختلفة فى أعلبها هى : كابل وشناب وراق وجيلم وستلج . أما نهر الرانى الذى يشار إليه كنهر رابع فهو فى الواقع امتداد لنهر السد الذى ينبع من كشمير . م. حـ ١ ص ١٦٦ .

(٣) شرحه .

(٤) عن الفتح الإسلامى لبلاد السد راجع:
O. H. Spate, India and Pakistan, London 1964, pp. 144-167.

الصنم .. ثم يضيف « وإذا نزلت الملوك من الكفار على المولتان وعجز المسلمون عن حربهم هددوهم بكسر هذا الصنم ، فترحل الجيوش عند ذلك »[1] .

ويتقدم فى أثناء رحلته تلك جنوباً إلى ثغر آخر من ثغور الإسلام هو بلاد المنصورة على نهر السند وكان دخوله إليها فى وقت دخوله المولتان ، والملك عليها أبو المنذر عمر بن عبد الله . وتقع هاتان المدينتان اليوم فى اقليم البنجاب الغربى بدولة الباكستان وهو اقليم لا يزال غنيا بموارده المائية وزروعه المختلفة وكثرة قراه وكثافة سكانه[2] . وقد لاحظ أنه إلى الجنوب من مدينة المنصورة يتشعب النهر إلى شعبتين تصبان فى البحر الهندى عند مدينة شاكرة[3] من أعمال المنصورة على بعد ميلين من مدينة الديبُل (كراتشى حديثا) . ويقدر أن جميع ما لبلاد المنصورة من الضياع والقرى ثلثمائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة . وعلم أثناء إقامته فيها أنها كثيرة الحروب يشنها جنس يقال لهم « الميد » وهم نوع من السند . ولم يفته أن يطلع على أصل تسمية المنصورة ، فيقول : « سميت المنصورة باسم منصور بن جهور عامل بنى أمية » . كما لم يفته أن يذكر أن لملك المنصورة فيله حربية ، وهى ثمانون فيلا يحوط كل فيل وقت الحرب خمسمائة رحل وبذلك يكون قادرا وحده على محاربة ألوفا من الخيل . ويتبع ذلك بطرفة من طرفه فيقول « رأيت له فيلين عظيمين كانا موصوفين عند ملوك السند والهند لما كانا عليه من البأس والنجدة والأقدام على فلّ الجيوش.. ولأحدهما أخبار عجيبة مشهورة فى تلك البلاد ومنها أنه مات بعض سُواسه فمكث أياما لا يطعم ولا يشرب ، يُبْدى الحنين ، ويظهر الأنين ، كالرجل الحزين ودموعه تجرى من عينيه لا تنقطع »[4] . وقد لاحظ أثناء إقامته فى المنصورة أن الفيله أنواع : منها ما يحارب ومنها ما يجر العَجَل ونوع ثالث يحمل الأثقال ويستعمل فى دياس الأرز وغيره من الأقوات كدوس البقر فى البَيْدر[5] .

---

(١) جـ ١ ص ١٦٧ .

(٢) O. H. Spate, pp. 454-467

(٣) جـ ١ ص ١٦٧ .

(٤) م جـ ١ ص ١٦٩ .

(٥) شرحه .

ممالك هندية :

وقد بدأ بمملكة البلهرا وهى تشرف بساحل طويل على بحر لاروى السالف الذكر . ويرجح أنها كانت تمتد إلى خليج كمباى حاليا . ومن مدنها الساحلية صيمور وسوبارة وتانه . (شكل ١) . وتنتهى إلى الساحل أنهار عظيمة تجرى من الجنوب إلى الشمال بالضد من أنهار العالم(١) .

وملك البلهرا كان يعز المسلمين على الرغم من كونه كافرا . فقد كان الإسلام فى ملكه عزيزا مصونا . وكان للمسلمين مساجد وجوامع معمورة بالصلوات . ويضيف أن أهل مملكته يزعمون أن طول أعمار ملوكهم إنما لسنة العدل واكرام المسلمين . بل أنه يقلد المسلمين عندما يرزق جنوده من بيت ماله(٢) . ويقع إلى الشمال الغربى من هذه المملكة مملكة أسماها مملكة الجزر(٣) وملكها كثير الخيول والإبل والجنود ، ويزعم أنه ليس فى ملوك العالم أجل منه إلا صاحب بابل وهو الإقليم الرابع الذى يرفع المسعودى فى شأنه فى أكثر من موضع فى مصنفية الباقيين . وفى أرضه معادن الذهب والفضة كثير الفيلة وهو مع ذلك مُبْغض للمسلمين(٤) . ويقع على حدود مملكة « البلهرا » مملكة « الطافن » ومملكة « رهمى » التى يتعامل أهلها بالودع . ويذكر أن ملك الطافن موادع لمن حوله وهو مكرم للمسلمين(٥) . أما ملك « رهمى » فهو أكثر جيوشاً وفيلة وخيولا من ملوك « البلهرا » والخزر والطافن مجتمعين. وفى بلده العود والذهب والفضة والثياب الرقيقة والكركدن (وحيد القرن)(٦) . وقد أفاض طويلا كدأبه فى الحديث عن هذا الحيوان وغيره من الحيوانات والطيور التى شاهدها أو قرأ عنها . بل إنه ذهب فى حديثه هذا إلى انتقاد قول الجاحظ فى « كتاب الحيوان » أن « الكركدن » يُحمل فى بطن أمه سبع سنين وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يدخل رأسه فى بطنها .

(١) يستطرد المسعودى فيقول « وليس فى أنهار العالم ما يجرى من الجنوب إلى الشمال إلا نيل مصر » حـ ١ ص ١٧٠ . وقد كان هذا الرأى سائدا منذ أيام اليونان . واليوم كثيرة هى الأنهار المعروفة التى تجرى من الجنوب إلى الشمال.

(٢) م. حـ ١ ص ١٧٠ .

(٣) يسميها التاجر سليمان مملكة الجزر — سلسلة التواريخ — مرجع سابق ص ٢٩ ، ويبدو أن ثمة تصحيفا فى هذه الكلمة .

(٤) م. جـ ١ ص ١٧٠ .

(٥) شرحه

(٦) م. حـ ١ ص ١٧١ .

وقد تأكد له خطأ الجاحظ بعد أن استفسر حول الموضوع ممن سلك مملكة رهمى من أهل سيراف وعمان ومن رأى بأرض الهند من التجار »[١] . فقد تعجبوا من قول الجاحظ واخبروه أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس . ثم يسأل مستنكراً كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ : « أمن كتاب نقلها أو مخبر أخبره بها »[٢] .

ويواصل الرحالة الحديث عن الممالك الهندية فيقول إنه يلى مملكة « رهمى » مملكة لا بحر لها هى مملكة « الكامن »[٣] . ولا نعرف على وجه اليقين موقعها من شبه القارة الهندية ولكن من سياق حديثه يمكن القول أنها تقع فى الشمال الغربى منها . ويصف أهل هذه المملكة بأنهم بيض مخرمو الأذان ، لهم فيلة وإبل وخيول ، وعندهم فلفل يسير ولكن عنبرهم كثير . ثم يلى هذه المملكة مملكة « الموجه » وهذه تحتل منطقة جبلية شاهقة (ربما الهيمالايا) وأهلها بيض أيضا ، ولكن غير مخرومى الأذان ولهم خيل كثيرة وعدذ منيعه ومسكهم موصوف يعرفه من عُنى بحمله وتجهيزه ، وهم يتشبهون بأهل الصين فى لباسهم . وجبالهم منيعة ، ولا يعلم بأرض السند والهند ولا فيما ذكر من هذه الممالك جبال أطول منها ولا أوعر[٤] . وينتهى فى وصفه لتلك الممالك بمملكة « المانِد » وهى مجاورة لمملكة الصين ولكن بينهما جبال منيعة يصعب اختراقها : ولأهل الماند مدن كثيرة وعمائر واسعة . وتستخدم ملوكهم الخدم وغيرهم فى العمل بالمناجم وجبايات الأموال تماماً كما تفعل ملوك الصين . والماند أهل بأس عظيم وبطش ويخشاهم ملك الصين. لذلك فإذا دخل رُسل من ملكهم أرضه فهو عادة يجعلهم تحت المراقبة ولا يتركهم ينتشرون فى بلاده خوفاً من أن يقفوا على عوراتها[٥] .

---

(١) م. حـ ١ ص ١٧٤ .
(٢) شرحه .
(٣) م. جـ ١ ص ١٧٢ .
(٤) شرحه ص ١٧٣ .
(٥) شرحه

الصين وأهلها :

وينقل عن كتب السابقين أخباراً تتصل بأنساب أهل الصين وبدئهم فيقول : إنهم ولد عابور وأنهم فرقة سارت على ساحل البحر حتى انتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين فتفرقوا فى تلك البقاع والبلاد .. ومصّروا

فيقول : إنهم ولد عابور وأنهم فرقة فتفرقوا فى تلك البقاع والبلاد .. ومصّروا الأمصار ومَدنّوا المدائن .. واتخذوا لمملكتهم مدينة عظيمة ، وبينها وبين ساحل بحر الصين مسافة ثلاثة أشهر مدن وعمائر متصلة(١) . ثم يتابع تواريخ ملوكهم مع ما يرتبط به من أساطير تعكس غنى هذا البلد واتساع عمارته ودقة صناعات أهله . وفى أثناء حكم هؤلاء الملوك الأوائل كانت الأمور منتظمة والأحوال مستقيمة والخصب والعدل لهم شامل . وكان أهل الصين كما يوضح شعوباً وقبائل كقبائل العرب وأفخادها . وينسب الرجل منهم إلى خمسين أبا .. ولا يتزوج أهل كل فخذٍ من فخذهم .. وبزعمهم أن فى ذلك صحة النسل وقوام البنية وأنه أصَحُّ للبقاء وأتم للعمر . وهكذا يخلط الزمان بالمكان بحيث لا يقوم حد فاصل بين التاريخ والجغرافية .

ويواصل حديثه التاريخى الجغرافى هذا فيقول وظلت أمور الصين مستقيمة فى العدل حتى فتنة يانشو سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م التى قضى فيها على نظام الملك السابق فتدهورت أحوال البلاد بعد ازدهارها بسبب ما أصاب منها من تخريب وما لحق بأهلها من قتل وتشريد . وفى هذا يقول : فشن (يانشو) الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانفو(٢) (كانتون حالياً) وافتتحها عنوة وهى مدينة عظيمة على نهر عظيم (نهر سيكيانج) أكبر من نهر دجلة يصب إلى بحر الصين(٣) .. وتدخل هذا النهر سفن التجارة الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعُمان ومدن الهند وجزائر الزانج (جزر الهند الشرقية) والصنف (جزائر اندمان) (شكل ١) . وقد قتل من أهل مدينة « خانفو » خلق من

---

(١) م. حـ ١ ص ١٣٢ .

(٢) شرحه ص ١٣٨ .

(٣) شرحه — بعد فتنة يانشو هذه صارت مراكب أهل سيراف وعمان لا تبلغ الصين وإنما تكون نهاية رحلتها عند بلاد كلة (ربما عند موضع سنغافورة حاليا) وهى فى منتصف الطريق إلى بلاد الصين ثم تأتى سفن الصين لتنقل متاجر العرب إلى الصين . على أن حكومة الصين بذلت فى القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادى) جهدا كبيرا لاجتذاب التجار من البحر الى الصين مباشرة ، راجع متز — جـ ٢ ص ٣٢٦ . وينقل المسعودى عن التاجر سليمان وأبى زيد السيرافى — راجع سلسلة التواريخ ص ٦٢ـ٦٧ .

أهلها لا يُحْصَون كثرة . وأحصى من المسلمين والنصارى والمجوس ممن قتل فكان مائتى ألف[1] . وهنا يلفت انتباه القارىء إلى سبق ملوك الصين فى اجراء التعداد فيقول : « إن ملوك الصين تحصى من فى مملكتها من رعيتها وكذا من جاورها من الأمم ، ليصير ذمة لها فى دواوين لها ، رويت بكُتَّاب قد وُكِّلوا بإحصاء ذلك . وهم إلى ذلك لهم اهتمام بالبريد ففى سائر الطرق كانت هناك بغال للبريد مسرجة ومعدة لنقل الرسائل[2] .

المسلمون فى الصين :

ومما يسرده المسعودى يتضح أن جالية كبيرة من المسلمين كانت تعيش فى الموانى والمدن الرئيسية فى الصين وأن الملوك كانوا يعاملونهم معاملة طيبة عادلة . ويضرب مثلاً على مدى انقياد الملوك فى الصين للعدل قصة ذلك التاجر من أهل خراسان الذى دخل الصين بتجارته فلقى ظلماً من ولاة الملك ، فذهب لمقابلة الملك فأنصفه ممن ظلمه ورد له متاعه .

ويضرب مثلاً على مدى احترام ملوك الصين لأهل بيت النبوة قصة ذلك الرجل القرشى الذى سبقت الإشارة إليه وكان من أرباب النعم ، وخرج من سيراف متجهاً إلى الهند ومن الهند أبحر حتى بلغ الصين فنزل فى مدينة خانفو فلما علم أن الملك فى مدينة أخرى من كبار مدنهم وهى خمدان سافر إليها وأقام بباب الملك يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب فأمر الملك بإنزاله فى بعض المساكن وتزويده بجميع ما يحتاج إليه[3] .

مدينة خمدان حاضرة الصين :

وعن صفة مدينة خمدان تلك يذكر المسعودى ما يسمعه عنها من معاصره أبى زيد الحسن السيرافى بالبصرة نقلاً عن هذا القرشى . فيقول : هى مدينة واسعة كثيرة السكان مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع عظيم طويل

---

(١) م. حـ ١ ص ١٣٨ قضت غارات بانشو عام ٢٦٦ هـ / ٨٨٠ م على مراكز الحاليات الإسلامية وغيرها من الجاليات حاصة فى مدينة حانفو كما هو واضح من هدا النص . راجع ايضا متر حـ ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) شرحه ص ١٤١ .

(٣) م. حـ ١ ص ١٤٢ .

عريض ، فالملك ووزيره وقاضي القضاة وجنوده وخصيانه وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه مما يلي المشرق لا يُخالطهم أحدٌ من العامة وليس فيه شيء من الأسواق ، بل أنهار في سككهم مطردة وأشجار منتظمة ومنازل فسيحة وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب ، الرعية والتجار والميرة والاسواق[1] .
ويضيف أن هذه البلاد (الصين) فيها كل نزهة وغيضة حسنة وأنها مطردة إلا النخيل فإنه معدوم عندهم وأما أهل الصين فمن أحذق خلق الله كفا بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم ، وهذا قليل من كثير عن الصين ردده في كتابه « أخبار الزمان »، كما ذكر في « الكتاب الأوسط » جملاً لم يتعرض لذكرها في الكتاب السابق[2] .

وللصين أنهار كبار مثل الدجلة والفرات وتجرى من بلاد الترك والتبت والصغد[3] (بين بخارى وسمرقند) .

طريق الحرير :

وهناك جبال النوشارد فإذا كان في الصيف رؤيت في الليل نيران قد ارتفعت من تلك الجبال .. ومن هناك يحمل النوشادر . ويصف الطريق البرى من خراسان إلى بلاد الصين (طريق الحرير) عبر جبال النوشادر في فصل لشتاء (شكل ١ . « فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين .. صار إلى واد بين تلك الجبال .. فيأتى إلى أناس هنالك على فم الوادى فيرغبهم في الأجرة النفيسة فيحملون ما معه على أكتافهم ، حتى يخرجوا إلى ذلك الرأس من الوادى وهنالك غابات ومستنقعات للماء فيطرحون أنفسهم في ذلك الماء لما قد نالهم من شدة الكرب وحر النوشادر » . ثم ينبه القارىء إلى « أن هذا الطريق لا يسلكه شيء من البهائم لأن النوشادر يلتهب نهاراً في الصيف فإذا كان الشتاء وكثرت الثلوج .. (وأنطفأ) لهيب النوشادر سلك الناس والبهائم ذلك الوادى . والمسافة بين بلاد خراسان على الموضع (بداية وادى النوشادر) إلى الصين نحو أربعين يوماً بين عامر وغامر ورمل وفي غير هذه الطريق مما يسلكه البهائم نحو أربعة أشهر إلا أن ذلك في خفارات أنواع من لترك »[4] .

(١) شرحه ص ١٤٦ . راجع أيضا « سلسلة التواريخ » مرجع سابق ص ٨٥—٨٦ .
(٢) شرحه .
(٣) م. جـ ١ ص ١٥٦ .
(٤) شرحه ص ١٥٧ .

ويتحدث عن رؤيته لشيخ بمدينة بلخ ذا رأى وفهم ، قد دخل الصين مراراً كثيرة ولم يركب البحر قط كما رأى عدة من الناس ممن سلك من بلاد الصغد (بين بخارى وسمرقند) على جبال النوشادر إلى أرض التبت والصين وبلاد الهند متصل ببلاد خراسان والسند ، مما يلى بلاد المنصورة والمولتان والقوافل متصلة من السند إلى خراسان وكذلك إلى الهند إلى أن تتصل هذه الديار ببلاد زبلستان وهى بلاد واسعة تعرف بمملكة فيروز بن كيك وفيها قلاع عجيبة ممتنعة ولغات مختلفة وأمم كثيرة(١) .

بلاد التبت :

ويواصل الرحالة حديثه عن الصين فيصف بلاد التبت بأنها مملكة متميزة من بلاد الصين وأنها متاخمة لأرض الهند وخراسان ولمفاوز الترك ، ثم يزعم أن الغالب عليهم حِمْيَر وفيهم بعض التابعة(٢) . وهم حضرٌ وبدو وبواديهم ترك لا تدرك كثرة وهم معظمون من سائر أجناس الترك ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات مَنَعه وقوة ويسمون ملوكهم « بخاقان » . ولبلاد التبت خواص عجيبة فى هوائها وسهلها ومائها وجبلها ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها . ثم يفيد أن الإنسان فى التبت لا يزال أبداً فرحاً مسروراً لا تعرض له الأحزان ولطيب الحياة لا يكاد يرى فى هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز بل الطرب فى الشيوخ والكهول .. »(٣) . ومع ذلك فالظن أنه لم يزر هذه المملكة الجبلية واعتمد على رواية الرواة .

ولا يخفى اهتمامه بالمسك كسلعة ترفيّة تفضل عن مسك الصين . ويُحمل من التبت إلى كل بلاد الإسلام فى عمان وفارس والعراق وغيرها من الأمصار . فيقول وفى بلادهم الأرض التى بها ظباء المسك التبتى الذى يفضل على الصينى بجهتين : أحداهما أن ظباء التبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الآفاوية وظباء الصين ترعى الحشيش .. والجهة الأخرى أن أهل التبت لا يتعرضون لإخراج المسك من نوافجه . ثم يفيض فى وصف المسك التبتى وكيفية تجهيزه محتفظاً بميزاته(٤) .

(١) م. جـ ١ ص ١٥٧ .
(٢) م. جـ ١ ص ١٥٨ .
(٣) شرحه .
(٤) شرحه ص ١٥٩ ، النافجة كلمة فارسية ومعناها الجلد الذى يتجمع فيه المسك .

رحلات المرحلة الثانية
٣٠٦ـ٣١٩ هـ / ٩١٨ـ٩٣١م
٣٢٠ـ٣٣٠ هـ / ٩٣١ ـ ٩٤٢ م

هذه مرحلة طويلة تنقسم فى رأينا إلى مرحلتين ثانويتين : الأولى منهما تمتد بين عامى ٣٠٦ـ٣١٩ هـ /٩١٨ـ٩٣١ م. وتمتد الثانية بين عامى ٣٢٠ـ٣٣٠ هـ /٩٣١ـ٩٤٢م . والمرحلة الثانوية الأولى هى من أسف غامضة بل إن السنوات الثلاث التالية يمكن أن تضاف إليها . ويرجع هذا الغموض إلى أن المسعودى كما أسلفنا لم يحدد تواريخ تنقلاته من بلد إلى آخر بل ولا رسم لنا خط سيره براً وبحراً كما فعل من جاء بعده من الرحالة كابن حبير (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧ م) وابن بطوطة (ا ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) على سبيل المثال . والمرجح أنه قضى هذه المرحلة يطوف بعض جهات فى العراق وسورية وربما الجزيرة العربية أيضاً[١] . لكنه لم يكشف لنا إلا عن القليل من مشاهداته واتصالاته وكل ما تحت أيدينا بهذا الخصوص إشارات متناثرة عن بطائح البصرة وأنهارها ، وصفة البحر الميت ونهر الأردن وانطاكية كثغر من ثغور الإسلام تقوم فيه كنائس قديمة على مقربة من المساجد وتحيط به الأسوار . ولا يمكن أن نعد فى هذا المقام فضائل العراق من قبيل المشاهدات فهى من النقول المتواترة . وقد أدخلت فى باب الأدب الجغرافى النظرى[٢] .

وفى المرحلة الثانوية الثانية التى امتدت بين عامى ٣٢٠ـ٣٣٠ هـ / ٩٣١ـ٩٤٢ م زار جهات أرمينية وأذربيجان والران والجبال والديلم وطبرستان وسجستان وخراسان وما وراء النهر . أما ما كتبه عن بعض الممالك التى تقع إلى الشمال من جبل القبخ (جبال القوقاز) وإلى الجنوب منه وعن بلاد الخزر والبرغز (البرغر) فى حوض الأورال والفلجا فاعتمد الرواية سبيلا إلى التدوين[٣] .

---

(١) Ch. Pellat - Almas'udi - p. 784 مرجع سابق

(٢) انظر حديثه عن الأقليم الرابع فى قسم الأدب الجغرافى النظرى .

(٣) اعتماده الرواية بديلا عن المشاهدة أفصح عنه بقوله « وليس لنا فى ذلك إلا النقل وأن نعزوه إلى رواية » ، م. جـ ٢ ص ٢٢٣ .
ونرى أن اسم « القبخ » كما جاء فى « مروج الذهب » محرف والصحيح « القبق » كما أوردها معاصره ابن حوقل فى كتابه «صورة الأرض» بيروت ١٩٨٠ ، ص ٢٨٦ ؛ وسنأخذ بهذا الأسم الصحيح عندما نعرض لهذا الجبل .

ممالك إسلامية :

يبدأ وصفه لهذه البلاد بالإشارة إلى جبل القَبْق (جبال القوقاز) وهو جبل عظيم ذو أودية وشعاب وفجاج فيه أمم لا يعرف بعضهم بعضاً لخشونته وامتناعه وتسلسل المياه من أعلاه وعظم صخوره وأحجاره ثم هو يفصل بين الكفار في شماليه والمسلمين إلى الجنوب منه . ومن الكفار شعب اللان وأنواع الترك وغيرهم . وتمتد أحد شعابه على بحر الخزر (بحر قزوين) مما يلي مدينة الباب . وعلى الجانب الآخر يمتد أحد شعابه إلى بحر بنطس (البحر الأسود) لينتهى إلى خليج القسطنطينية . ويصف مدينة طرابذندة (طرابيزون) التى تطل على بحر بنطس بأنها مدينة تجارية يأتى إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم . ومن الممالك الإسلامية التى تقع جهة الشمال مما يلى جبل باكه (باكو) مملكة شروان وكان اسم ملكها عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م محمد بن يزيد الذى تملّك مدينة الباب بعد موت صهره عبد الملك بن هشام . وقد استطاع محمد بن يزيد أن يمد ملكه شمالاً إلى مملكة الران وجنوباً إلى بلاد الموقان (شرق اذربيجان) وتلى مملكة شروان هذه مملكة طبرستان وملكها مسلم . ثم يتحدث عن أمة داخلة فى جملة ملوك الخزر وكانت دار ملكها عندما زارها مدينة أتل . ويصفها بأنها من ثلاثة قطع يقسمها نهر عظيم أتل (الفلجا) يرد من أعالى بلاد الترك وهذه المدينة فى جزيرة تقع فى وسط النهر ، وقصر الملك وسط هذه الجزيرة ، وبالجزيرة جسر إلى أحد الجانبين من سفن . وينقل عن سابقيه من الرحالة أن فى هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية[1] . فأما اليهود فالملك وحاشيته منهم وجيشه من الخزر . ويعود إلى التاريخ فيخبرنا متى صار الملك يهودياً فيقول « تهوّد ملك الخزر فى خلافة هارون الرشيد (١٧٠ــ١٩٣ هـ / ٧٨٦ــ٨٠٩ م) وقد انضاف إليه خلق من اليهود قدموا إليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم ، ويضيف أن سبب ورود اليهود من بلاد الروم أن ملك الروم فى وقت زيارة المسعودى وهو (٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) أكره من كان فى ملكه من اليهود على دين النصرانية فتهارب خلق منهم إلى مملكة الخزر[2] .

(١) عبدة الأوثان .

(٢) م. جـ ١ ص ١٧٨ــ١٧٩ .

ومن الأجناس التى سكنت مملكة الخزر هذه ، الصقالبة والروس وكانوا مع الجاهلية[1] ويعيشون فى أحد جانبى العاصمة (أتل) ، وقد أبدى عجبه من بعض عاداتهم : فيذكر أنهم يحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلى . إلا أن الغالب فى هذه المملكة هم المسلمون ومنهم جند الملك ويعّول عليهم فى حروبه، قدموا أصلاً من بلاد خوارزم (حيث يعرفون باللارسية)، بعد أن حل بها الجدب . وقد أقاموا فى هذا البلد على شروط بينهم : أحدها ــ إظهار الدين والمساجد والآداب ، وثانيها : أن تكون وزارة الملك منهم[1].، وثالثها : أنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين لا يحاربون أهل ملتهم . وفوق ذلك فقد كان لهم قضاة مسلمون . ولم يكن اللارسية هم وحدهم من المسلمين . فقد كان فى المملكة خلق من المسلمين من غيرهم يعملون بالتجارة والصناعة فروا إلى هذه البلاد لإنتشار العدل وسيادة الأمن بها . وكان لهم مسجد جامع تشرف منارته على قصر الملك ، ومساجد أخرى فيها مكاتب لتحفيظ القرآن ..

ويواصل ذكر أحوال الخزر وأعمالهم فيقول « وللخزر زوارق يركب فيها التجار فى بحر فوق المدينة (أتل) يقال له البرطاس (نهر الأورال) ، تسكن على جوانبه أمم من الترك يحكمها ملوك من الخزر . أما عمائرهم فمتصلة بين مملكة الخزر السالفة الذكر وممالك البرغر (البلغار)[3] . التى تحتل الحوض الأعلى من النهر . ويحمل على النهر من بلاد الترك هذه جلود الثعالب السود والحُمر . ويلبس السود منها ملوك العرب والعجم .

وقد أسس البرغر (البلغار) فى ذلك الوقت مملكة فى الحوض الأوسط للفلجا وأخرى فى حوض الدانوب . وكان الفلجا الأعلى يرتبط بطرق قوافل بخراسان عبر بوادى الترك . ويخبرنا المسعودى أن ملك البرغر فى حوض الفلجا مسلم ، أسلم أيام المقتدر بالله وذلك بعد العشر وثلثمائة للهجرة / ٩٢٢ م . ولأنهم يعيشون فى الإقليم السابع فإن ليل البلغر (البلغار) فى نهاية من القصر

---

(١) كان اسم هذا الوزير ــ أحمد بن كويه . م. حـ ١ ص ١٧٩ .

(٢) عن البرغر راجع ياقوت الحموى ، معجم البلدان جـ ١ ص ٤١ .

فى بعض السنة[١] . ويبدو أن هذا الوصف نقله عن ابن فضلان الذى خرج فى ابعثة إلى الأصقاع الشمالية فى عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م[٢] .

ثم يحكى عن الروس وأممهم وأخبارهم وحروبهم وصلاتهم التجارية التى بلغت بلاد الأندلس مروراً ببلاد الخزر والقسطنطينية ورومة . ثم يقص علينا قصة تكشف عن مقدرته على الاستدلال حول صلة بحر الخزر (قزوين) ببحر بنطس (الأسود) . فقد قدم الأدلة على عدم وجود خليج يصل بحر الخزر (قزوين) ببحر بنطس (الأسود)[٣] . وكان القول بوجود مثل هذه الصلة شائعاً منذ أيام بطلميوس الجغرافى (ق ٢ م) . ويواصل المسعودى حديثه عن بلاد بحر الخزر فيذكر طبرستان وبلاد الجيل والديلم. ومن المدن فى هذه الأصقاع يذكر الهَـم وهى فرضة قريبة من السواحل وآمل Amul التى تقع على بعد ساعة منها ، وباكه (باكو) وهى معدن النفط الأبيض ، وتقع على ساحل مملكة شردان . ومن بحر الخزر تختلف المراكب فيه بالتجارات فى هذه المواضع المذكورة .

أطمات وبزاة :

واسترعى انتباهه وجود أطمة (مخروط بركانى) قرب باكة (باكو) ويصفها بأنها عين من عيون النار لا تهدأ على سائر الأوقات . ولم تكن هذه الأطمة هى الوحيدة فى المنطقة ففى بحر الخزر جزيرة فيها أطمة عظيمة تزفر فى أوقات من السنة ، فتظهر منها نار عظيمة تذهب فى الهواء فتضىء الأكثر من هذا البحر . ويقف ليقارن هذه الأطمة بتلك التى رآها أو قرأ عنها مثل أطمة بلاد صقلية وأطمة بلاد المهراج (الجزر الأندونيسية) وهى الأشد صوتاً والأسود دخاناً وأطمة بلاد الشِّحر بين اليمن وعمان التى لها صوت كالرعد يسمع من أميال كثيرة .

وكما استوقفه منظر البراكين النشطة فقد استهواه منظر البزاة البيض فى بعض جزائر بحر الخزر المقابلة لساحل جرجان فهى أسرع البزاة وأحسنها وأجرؤها

(١) م. حـ ١ ص ١٨٢ .
(٢) انظر زكى حسن ـ الرحالة المسلمون ـ القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٢٦ـ٢٩ .
(٣) م. حـ ١ ص ١٨٥

قلوباً خاصة إذا لم يختلف عليها الغذاء[1] . ثم يفيض فى الحديث عن هذا الطائر مما يكشف عن اهتمامه بمخلوقات الله من الحيوانات والطيور ذات الصفات المعتبرة .

ممالك غير إسلامية :

ويرحل المسعودى بعد ذلك إلى الغرب من مدينة الباب (دربند) حيث مملكة جيدان وملكهم رجل مسلم (عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٢ م) وليس فى مملكته مسلم غيره وولده وأهله . ويعيش بين هذه المملكة ومدينة الباب أناس من المسلمين عرب لا يحسنون شيئاً من اللغات غير العربية ، وهم قرويون يعيشون فى آجام وغياض وأودية[2] . ويلى مملكة جيدان مما يلى جبال القَبْق والسرير ملك مسلم يعرف بلده بالكُرج (جورجيا) (شكل ٢) ، ويلقب الملك ببرزبان . وثمة مملكة أخرى غير بعيدة عن الكُرج هى مملكة زريكران . ويشتهر سكانها بعمل الزرد واللجم والسيوف . وهم متعددو الديانات فمنهم المسلمون ومنهم اليهود والنصارى وبلدهم وعر ، ولذا فقد امتنعوا بوعورته على من جاورهم من الأمم[3] . ثم يلى مملكة زريكران مملكة السرير وتقع على سلسلة من جبال القَبْق بين مملكة اللّان والباب . وملكها يدعى فيلان شاه يدين بالنصرانية وله اثنتا عشر ألف قرية . وبلد فيلان شاه هذا بلد خشن منيع لخشونته ، إذا ما أغار على الخزر فهو مستظهر عليهم لأنهم فى سهل وهو فى جبل . ولوعورتها فليس للملكة إلا مسلكين مسلك إلى بلاد الخزر ومسلك إلى بلاد أرمينية[4] .

وانتقل المسعودي فى ترحاله إلى مملكة اللان وتقع على مقربة من جبل القبق الذى يشكل الحد الشمالى بين بلاد الخزر من ناحية والممالك التى ظهرت بين بحر الخزر وبحر بنطس (الأسود . وملك اللّان هذا يقال له كركنداج كما يقال لدار مملكته مغص[5] . وكانت ملوك اللان قد دخلت فى الإسلام أيام الدولة العباسية بعدأن كانوا عبدة الأوثان ثم تحولوا بعدعام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م إلى ما كانوا عليه من الجاهلية . ويقف الرحالة عند خبر قلعة وقنطرة على واد

(١) م. جـ ١ ص ١٨٧ .

(٢) م. جـ ١ ص ١٩٢ .

(٣) شرحه

(٤) شرحه .

(٥) شرحه ص ١٩٤ .

عظيم تعرف بقلعة باب اللان بين مملكة اللان وجبل القبق . وهى أحدى قلاع العالم الموصوفة بالمنعة . ثم يحدثنا عن قصة من بناها وهو ملك قديم من ملوك الفرس يدعى سبندباذجاء ذكره فى كتاب قديم أطلع عليه بعدأن نقله ابن المقفع إلى العربية ، بناها ليمنع اللّان من الوصول إلى جبل القَبْق . ثم عندما قدم المسلمون إلى هذا الصقع بقيادة مسلمة بن عبد الملك بن مروان أسكن فى هذه القلعة أناساً من العرب لحراسة الموضع . ويبالغ فيقول « ولو كان رجل واحد فى هذه القلعة لمنع سائر الملوك الكفار أن يجتازوا بهذا الموضع »[(١)] . وعمائر اللّان كما يصفها المسعودى متصلة غير منفصلة ، إذا تصايحت الديوك تجاوبت فى سائر المملكة لاشتباك العمائر وإتصالها[(٢)] .

وانتقل من مملكة اللّان إلى أمة مجاورة يقال لها كشك[(٣)] لا ملك لها ، تعيش بين جبل القبق وبحر بنطس وهى أمة مجوسة تتصف بأنها أنقى أبشاراً وأصفى ألواناً من جميع الأمم فى الصقع الذى يسيح فيه « ولباسهم البياض والديباج الرومى وبأرضهم أنواع من الثياب من القنب تُحمل إلى ما يليهم من بلاد الإسلام »[(٤)] .

ثم يتبع ذلك بأسطورة عن أمة عظيمة لا يسميها ، تمتد بلدها بين بلاد كشك ونهر عظيم كالفرات يصب فى بحر الروم وقيل بحر بنطس (الأسود) . ويقال لدار مملكتها إرم ذات العماد . هذا البلد له خبر طريف وذاك أن سمكة عظيمة تأتيهم كل سنة من هذا البحر فيتناولون منها ثم تعود ثانية فتتوجه نحوهم من الشق الآخر فيتناولون منها ، وقد عاد اللحم على الموضع الذى أخذ منه أولاً ، ويختم الرحالة الأسطورة بقوله « وخبر هذه الأمة مستفيض فى تلك الديار من الكفار » [(٥)]. وبعد أن يسهب فى وصف القردة فى بعض الجبال على مقربة من ساحل بحر بنطس والقردة فى اليمن والأفاعى والحيات فى سجستان[(٦)] ، يواصل حديثه عن أمم تلى بلاد الخزر واللّان « فثمة أمم أربع

---

(١) م. جـ ١ ص ١٩٤ .

(٢) شرحه .

(٣) يفسر المسعودى كلمة تشك بأنها كلمة فارسية ومعناها بالعربية التيه والصلف ، م. حـ ص ١٩٥ .

(٤) شرحه .

(٥) شرحه .

(٦) شرحه ، ص ١٩٦ــ١٩٧ .

تعيش إلى الغرب منهم ترجع فى أصولها إلى أب واحد منهم حضر ومنهم بدو لكل أمة منها ملك »[1] .

من غريب الأمم والبلاد :

ويتابع المسعودى حديثه عن غريب الأمم والبلاد فى هذه الأصقاع فيتحدث عن أمة أخرى بين جبال أربعة وعرة شاهقة تقف وسط صحراء . «وفيما بين تلك الجبال دارة مقورة تحتل حسفة مجوفة غائرة فى حجرّ صلد يكون قعرها على نحو ميلين فى مستوى الحائط الجبلى المحيط بها ولا سبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدارة . وفى أثناء الليل ترى فيها نيران كثيرة فى مواضع عدة وبالنهار ترى قرى وعمائر وأنهار تجرى بين تلك القرى وناس وبهائم .. لا يدرى من أى الأمم هم ، ولا سبيل لهم إلى الصعود إلى جهة من الجهات ، ولا سبيل لمن فوق إلى النزول إليهم بوجهٍ من الوجوه »[2] . ويثبت المسعودى بما عاينه أو سمع عنه أنه كان رحالة شغوفاً باكتشاف ما غمض لبعده أو لصعوبة النفاد إليه .

من عجائب المخلوقات :

وهو ينقلنا بعد سرد طويل لأخبار الأمم ووصف مختصر للممالك التى زارها أو قرأ عنها جمع فيه بين التاريخ والجغرافية والحقائق والتخيلات ، إلى حديث مختلف تماماً عن كائنات شاهدها أو قرأ عنها . وفى هذا ولا شك خروج عن السياق امتاعا للقارىء. فهو يخبر بقرودعلم بوجودها أو ربما رآها فى خسفة أخرى قريبة القعر وراء تلك العميقة التى سبق أن وصفها ، فيها آجام وعياض وفيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه على صور الناس وأشكالهم ، إلا أنها ذات شعر . وهى لا تنطق ولكن تفهم بالإشارة يحمل الواحد منها للملوك خاصة ملوك السند والهند فيتعلم القيام على رؤوسها بالمذابّ ، كما يُستعان به فى معرفة السموم من المأكل والمشرب[3] . ثم يفيض فى الحديث عن أماكن تكاثر القرود فى اليمن وسيراف وعمان ومملكة

(١) م. حـ ١ ص ١٩٥ ح

(٢) شرحه ، ص ١٩٦ .

(٣) شرحه .

المهراج (بعض الجزر الأندونسية) ويتبعه بأخبار عن السناس والعرابين فى اليمامه ودوييات كالقنافذ فى سجستان والعرانس فى صعيد مصر تفيد فى إعادة التوازن بين الأحياء وتقى الناس شر الحيات والعقارب مما يكشف عن تنوع اهتماماته واتساع معارفه بالحيوانات وطبائعها وأهمية التوازن فيما بينها .

وبعد انقطاع طويل عن ذكر أخبار الأمم المحيطة بمدينة الباب وجبل القبق وبلاد اللّان والخزر مستطرداً بخبر أربع أمم تلى بلاد الخزر واللّان من جهة الغرب وهى على ما يبدو أمم من البرابرة التى عظم نفوذها وشرها فى القرن الرابع للهجرة / ١٠ م ، وما قبله سكنت الأراضى السهلية إلى الشمال من نهر الدانوب وجنوبى روسيا الحالية ومنعت روما والقسطنطينية غزواتهم المخربة لأراضيها بحصون وقلاع انتشرت على جبهة واسعة . (شكل ٢) .

أمم أخرى تسكن حول بحر الخزر :

ويواصل حديثه عن الأمم التى تسكن إلى الغرب من بحر الخزر فيذكر أمة الأبخاز التى تلى اللّان من جهة جبل القبق فى الشمال وهى مملكة نصرانية مغلوبة على أمرها من قبل ملك اللّان . وتليها مملكة الجورية وهى نصرانية كذلك . ويحدثنا عن كيف اهتزت هيبة المسلمين فى ثغر تفليس وما حوله أيام المتوكل (ت ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م) بعد أن كان من ثغور الإسلام ذات المنعة والقوة والنفوذ على ما حوله أيام الدولة الأموية . ويتحدث عن مظاهر ضعف المسلمين فى تفليس بقوله « فامتنع من جاورهم من الممالك من الإذعان لهم بالطاعة واقتطعوا الأكثر من ضياع تفليس وانقطع الوصول من بلاد الإسلام إلى ثغر تفليس »(١) (شكل ٢) .

ويعدد المسعودى بعد ذلك أسماء ممالك نصرانية ووثنية تسكنها جاليات إسلامية تلى مملكة اللّان يمزج فيها التاريخ بالجغرافية كعادته هى : الصنارية وشكين وقيله . ثم يذكر الأنهار التى تصب فى بحر الخزر منحدرة من المرتفعات فى الغرب ومنها نهر الكرّ (كورا حاليا) الذى يمر ببلاد الأبخاز حتى يأتى ثغر تفليس ثم يغادره إلى قرب مدينة برذعة قصبة أرمينية ثم يلتقى نهر الرس (أراس حديثا) ترفده روافد تأخذ من مرتفعات الرّان (أو أرّان)(٢) فى أرمينية قبل أن تنصب مياهها فى بحر الخزر جنوبى باكه (باكو حديثا) .

(١) م حـ ١ ص ٢٠٣ .

(٢) راجع ياقوت حـ ١ ص ١٣٦ .

فى جورجات وخراسان وسجستان

ونحده بعد ذلك فى جورجان فى شرق بحر الخزر فيركب من ميناء أبسكون ليبحر إلى الهم ميناء طبرستان فى ذلك الوقت[1] . ويذكر أنه على سواحل بحر طبرستان يسكن الجيل والديلم وأن آمل Amul أهم مدن مملكة طبرستان تقوم فى ظل حبل دنباوند (ديماوند حديثا) وهو أعلى الجبال يرى من مائة فرسخ لعلوه .. والثلوج مترادفة عليه[2] . ويواصل المسعودى ترحاله فى طريقه إلى نواحي خراسان عبر مغازة هى أقل مفاوز الإسلام سكانا وقرى ومدناً حتى يبلغ بلخ قرب نهر جيحون . وهناك سمع عن « جبل النوشادر » الذى سبقت الإشارة إليه . وفى ناحية من نواحى خراسان هى بنجهير يوجد جبل الفضة حيث تكثر الحُفَر بحثاً عن عروق الفضة[3] ، وعندما انتقل إلى سجستان (جنوبى إيران) وجدها صقعاً محاطاً بتلال رملية كثيرة الشجيرات والأحراج فكثر فيها القنافد[4] . ويبدو أنه كان عنده الوقت الكافى لمناقشة رأى بعض الجغرافيين القائل إن نهر جيحون يصب فى بحر كرمان (المحيط الهندى) وقد انتهى إلى رفض هذا الزعم وبنى رفضه على مشاهداته أثناء جولاته فى جهات فارس وسجستان وكرمان . ويعبر عن ذلك بقوله « إن أنهار كرمان التى تجرى ميممة نحو ساحل مكران معروفة لنا تماماً » وهو بهذا يعنى أن هذا النهر لا يمكن أن يكون أحد هذه الأنهار . وليس كالمعانية أسلوباً للتحقق والتثبت .

---

(١) م. جـ ١ ص ١٢٥ .

(٢) شرحه ، ص ٩٢–٩٣ .

(٣) أخطأ عندما قال إن بنجهير فى خرسان والصحيح أنها فى سجستان ، راجع
Maqbul Ahmed, Travels of Al Masudi, Islamic Cuture, vol. XXVII, No. 1, Jan. 1954. pp 514-15.

(٤) م. جـ ١ ص ١٩٩ .

رحلات المرحلة الثالثة

٣٣٠ــ٣٤٥ هـ / ٩٤١ــ٩٥٦ م

عودته إلى بلاد الشام :

دخل المسعودى مصر ليستقر فى نحو عام ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م ثم بدأ تصنيف « كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر » لكنه لم يلبث أن خرج فى نفس العام إلى الشام ليعود بعد فترة قصيرة فزار طرابلس ودمشق وانطاكية ومنطقة الثغور ومدناً فى فلسطين كطبرية والناصرة[١] . وقد توطدت العلاقة بينه وبين حاكم منطقة الثغور الذى حدثه عن الصلة بين بحر الروم وبحر بنطس والتقى فى طرابلس عبداً من عبيد حاكم الثغور هذا وصفه بأنه بحار محرب وخبير بسفن البضاعة والحرب . وقد وجد أنطاكية (قاعدة كورة العواصم) ذات أسوار منيعة وتتصف بكثرة زلازلها وفساد مياه الشرب فيها وقام بزيارة كنيستها للاطلاع على بعض تواريخ طائفة المالكية اليونانيين . ومن طريف ما ذكره أنه بلغته أثناء زيارته لهده المدينة (٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) أخبار ارتفاع فيضان النيل إلى ثمانية عشر ذراعاً وهو ارتفاع فيه صلاح كل أرض مصر . ثم التقى فى بلدة جبلة عبد الله بن وزير وهو أحد الخبراء فى شئون الملاحة فى بحر الروم . ويبدو أنه استفسر منه عن كثير من أحوال هذا البحر الذى لم يركبه قط[٢] . وعندما بلغ البحر الميت وصفه بأنه بحيرة منتنة لا حياة فيها[٣] ، وهنا يقول « ولا تمانُع بين ذوى الفهم أن فى مواضع من الأرض مدناً وقرى لا يدخلها عقرب ولا حية مثل مدينة حمص ومَعَرَّة ونُصْرى وانطاكية » . « وقد كان ببلاد أنطاكية إذا أخرج إنسان يده خارج السور وقع عليه البق فإذا جذبها إلى الداخل لم يبق على يده من ذلك شىء إلى أن كسر عمود من الرخام فى بعض المواضع بها فأصيب فى أعلاه حُقٌّ من نحاس فى داخله بَق مُصوَّر من نحاس نحو كف. فما مضت أيام أو على الفور من ذلك، حتى صار البق فى وقتنا هذا يعم الأكثر من دورهم » [٤] . وتلك خرافة من الخرافات التى كان

(١) يرى مقبول أحمد أنه تردد أكثر من مرة على الشام فزار فى عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م من الملك طبرية وحلب ونواحى انطاكية ــ راجع Maqbul Ahmed, p. 509 مرجع سابق .

(٢) م حـ ١ ص ١٠٣

(٣) شرحه ، ص ٣٣٠ــ٣٣٥

(٤) شرحه ، ص ٣٦٢

مغرما بذكرها امتاعا للقارىء . لكن تظهر من ناحية أخرى دقة ملاحظاته وهو الرحالة الواسع التجوال كيف يفقد الحيوان أو النبات كثيراً من صفاته إذا حُمل من بيئته الأصلية إلى بيئة غريبة ويضرب مثلاً على ذلك بالطواويس وشجر النارنج والأترج المدور . « فالطواويس موطنها الهند تظهر هناك رائعة تَسُرّ العين فإذا ما حملت إلى أرض غريبة تصير صغيرة الأجسام كدرة الألوان ، وعندما حُمِل شجر النارنج والأترج المدور إلى أرض غيرها بعد ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ليزرع فى عمان ثم البصرة والعراق والشام حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية وإنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر . (وما كان يعهد أو يعرف) فعدمت منه الروائح الطيبة واللون الحسن الذى يوجد فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وحاصية البلد »[(١)] .

نزولـه مصـــر :

وأغلب ما كتبه عن مصر لم يأت من واقع المعاينة والتجربة ، فقد اعتمد فى ذلك على ما أطلع عليه فى خزائن الكتب أو على ما سمعه من أهل الخبرة يتخلله شيء من الأساطير ، ويردد فى أكثر من موضع فى كتاب « مروج الدهب » أنه سبق أن بسط الكلام فى أخبار مصر فى كتابه « أخبار الزمان » « والكتاب الأوسط » . وسنقصر حديثنا فى هذا المقام على ما شاهده وما سمعه من الرواة فى مصر من مقتبسات من بعض الأساطير التى تميز أدب رحلاته فى هذه المرحلة بالذات[(٢)] . يقول « ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها . وهى ليلة إحدى عشرة تمضى من طوبة وست من كانون »[(٣)] . وقد حضر سنة ثلاثين وثلثمائة / ٩٤١ م هذه الليلة والأخشيد فى داره فى

(١) المصدر السابق ص ٣٣٧ .

(٢) من المنقول والمأثور وصف بعض حكماء مصر فقالوا: بيلها عحب وأرضها ذهب وحيرها جلب وقال آخرون : هى ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء ــ م. حـ ١ ص ٣٣٩ .
وينقل ما قالت العرب فى الىيل : إنه إذا زاد عاضت له الأنهار والأعين والآبار وإذا عاض رادت فزيادتها من عيصه وغيضُه من ريادتها . ويضيف نقلاً عن عيره وليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحراً أويّما غير نيل مصر لكبره واستبحاره ــ م. حـ ١ ص ٣٤١

(٣) م. حـ ١ ص ٣٤٣ .

جزيرة يطيف بها النيل . ويصف ما رآه فيقول « وقد أمر (الأخشيد فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو آلاف من الناس من المسلمين والنصارى . ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس .. وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرىء للداء »(١)

وقد زار الفيوم وشاهد خلجانها وبحيراتها التى كانت من قبل مصفاة لمياه الصعيد ، ثم يشير إلى بحيرة تنيس (المنزلة حالياً) ناقلا عن أحد المعمرين الأقباط أخباراً مأثورة حول طغيان مياه البحر على هذه البحيرة وما حولها فيقول « كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة .. ولم ير الناس بلداً أحسن من هذه الأرض ولا أحسن اتصالاً من جنّاتها وكرومها . ثم حدث أن بدأ البحر فى الزيادة حتى هجم الماء من البحر على بحيرة تنيس فأغرق قُراها »(٢) .

ومن عجائب مصر التى كانت مطمع الولاة « الدفائن » وما يوجد فيها من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض . وله فى ذلك قصص طويلة سمعها من الرواة ويختتمها بقوله : « وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر إلى أحمد بن طولون وغيره وإلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة / ٩٤٣ م ــ أخبار عجيبة ، مما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر وما أصيب فى القبور من المطالب والخزائن »(٣) .

ولقد أبدى إعجابه بالأهرام حين شاهدها « فطولها عظيم وبنيانها عجيب عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة .. لا يدرى ما تلك الكتابة ولا ما المراد بها »(٤) . وقد شاهد بعينه بقايا الحائط المعروف بحائط « العجوز » الذى

---

(١) المصدر السابق .
(٢) م. جـ ١ ص ٣٤٩ .
(٣) شرحه ، ص ٣٦٩ .
(٤) شرحه ، ص ٣٦١

يزعم وفقاً لما قرأه مس تاريخ الفراعنة أن ملكة بنته وحعلت عليه المحارس والأحراس . وأخبره غير واحد من بلاد أخميم من صعيد مصر حيث توجد البرابى (آثار الفراعنة) أن أحد الحكماء كان يمتحن كثيراً مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور[١]

وعندما سأل يوماً جماعة من أهل الخبرة من أقباط مصر بالصعيد عن تفسير « فرعون » فلم يخبروه عن معنى دلك مما يكشف عن رغبته فى مزيد من المعرفة . وقد حاول هو تفسيره فيقول « يمكن والله أعلم — أن هذا الإسم كان سمة ملوك تلك الأعصار وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية والفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية ، وكاليونانية إلى الرومانية ، وتغير الحميرية أو غير ذلك من اللغات »[٢] . وهو بهذا يظهر علما واسعاً بتاريخ اللغات .

محـــــاورات :

ويشير فى خبر طويل إلى ذلك الحكيم القبطى الذى أحسن ابن طولون وفادته ليسأله فى حضور أهل الدراية أسئلة كثيرة عن مصر وتاريخها وجغرافيتها الماضية. وكان أول سؤال سأله هذا الحكيم عن بحيرة تنيس ودمياط، فقال: « كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة ، وكانت جنانا ونخلا وكرماً وشجر أو مزارع .. ولم ير الناس بلدا كان أحسن من هذه الأرض ولا أحسن اتصالا من جناتها وكرومها . ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم .. وكان الماء منحدراً إليها لا ينقطع صيفا ولا شتاء .. وسائره يصب إلى البحر من سائر خلجانه .. فلم يزل البحر يزيد ماؤه ويعلو أرضا فأرضا فى طول ممر السنين يرى زيادته أهل كل زمان .. حتى على الماء الطريق الذى كان بين العريش وبين قبرس .. وقبل أن تفتح مصر بمائة عام هجم الماء من البحر على بعض المواضع التى تسمى اليوم بحيرة تنيس فأغرقه ، وأما التى كانت على ارتفاع من الأرض فبقيت منها بونة وسمنود .. »[٣] .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥٩ .
(٢) م. جـ ١ ص ٣٦٦ .
(٣) شرحه ، ص ٣٣٧—٣٥٥ .
تشير هذه الرواية إلى هبوط شمال الدلتا ومنطقة الإسكندرية ، ومس ثم طغيان البحر فى أول القرن السابع الميلادى ، وقد ثبت ذلك وكتب فيه كثير من الباحثين ، راجع عبد الفتاح وهيبه — الجغرافية التاريخية — الأسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٢٧٨—٢٨٢ .

ومن الأسئلة الأخرى التى وجهها ابن طولون للحكيم القبطى : أتعرف بمصر مقاطع رخام ؟ قال الحكيم : نعم فى الجانب الشرقى من الصعيد جبل رخام عظيم كانت الأوائل تقطع منه العمد وغيرها ، وكانوا يَجْلون ما عملوا بالرمل بعد النقر .. منها العُمد التى بالأسكندرية والعمود الضخم الكبير بها (عمود السوارى) لا يعلم بالعالم عمود مثله »[1] . ويضيف المسعودى نبذة عما شاهده من هذه الأعمدة فى أسوان فيقول : وقد رأيت فى جبل أسوان أختا لهذا العمود (عمود السوارى) قد هندس ، ونقر ولم يفصل من الجبل ولم يُحَكَّ ما ظهر منه وإنما كانوا ينتظرون أن يفصل من الجبل ثم يحمل إلى حيث يريد القوم[2] .

ثم سئل عن الفيوم وخليج المنهى وحجر اللاهون (قنطرة اللاهون)[3] ، فذكر القبطى كلاما طويلا فى تاريخ هذا الأقليم ومشروعات الرى التى أقامها القدماء . ثم يكشف المسعودى عن اهتمامه بدراسة أهل العقائد والمذاهب المختلفة . فيقول : « ولهذا القبطى مجالس كثيرة عند أحمد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والديصانية والثنوية والصابئة والمجوس ، وعدة من متكلمى الإسلام . وقد أتينا على ما احتمل منها ايراده فى كتابنا « أخبار الزمان »[4] .

من الأخبار المأثورة :

ويواصل المسعودى ذكر الأخبار المأثورة عن مصر فيذكر ما قيل حول بناء الأهرام والكتابة التى لا تقرأ عليها وعلى البرابى بها وعن النوبة وأرضها إلى غير ذلك من الأخبار . ومن بين ما سمعه عن بلاد النوبة وأهلها : « أنهم أصحاب إبل وبُخْت وبقر وغنم وملكهم يمتطى الخيل العتاق ورميهم بالنبل .. وعنهم أخذ الرمى أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب . ولهم النخيل والكرم والذرة والموز والحنطة وأرضهم كأنها جزء من أرض اليمن وملكهم يستولى على ما مقرا وعُلوة »[5] .

(١) م. جـ ١ ص ٣٥١ .
(٢) شرحه ، يشير الرحالة إلى المسلة التى لم يكتمل قطعها وهى اليوم من المزارات السياحية فى أسوان .
(٣) شرحه ، ص ٣٥٢
(٤) شرحه ، ص ٣٥٥ .
(٥) شرحه ص ٣٥١–٣٥٢

ولا تقتصر العجائب فى مصر على الأهرام والبرابى والدفائن ففى نيلها وأرضها عجائب كثيرة من أنواع الحيوان مما فى البر والبحر . من ذلك السمك المعروف « بالرّعاد » ، إذا وقعت واحدة منه فى شبكة صياد رُعدت يداه . والفرس (فرس النهر) الذى يكون فى النيل إذا خرج من الماء وانتهى إلى بعض المواضع من الأرض علم أهل مصر أن النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه(١) .

وفى أثناء جولاته فى صعيد مصر يبدو أنه علم بوجود موضع يقال له « الخربة » فى صحراء مصر الشرقية فيه معدن الزمرد وغير بعيد عنه تقوم مدينة « قوص » على النيل وهى مدينة عامرة ومدينة قفط وتبعد عن النيل قليلاً . وقد وجدها متداعية للخراب(٢) .

البجة ووادى العلاق والواحات :

وقد اكتفى بجمع الأخبار عن البجة وأرضها ووادى العلاق معدن الذهب وما حاوره . من هذه الأخبار أن جماعات « البجة » المالكة لهذا المعدن (الزمرد) تتصل ديارها بوادى العلاق وهو معدن الذهب . « وماء أهل العلاق من المطر كما أن لهم ماءً من عين يسيل وسط الوادى . وأقرب العمارة إليهم مدينة « أسوان » التى يختلط أهلها بالنوبة ، وأهل النوبة من ناحيتهم متصلة تجارتهم وقوافلهم بمدينة أسوان » (٣). وكانت بلدة « بلاق » أعلى نقطة على النيل تصعد إليها سفن المسلمين . ويذكر أنه إستقى هذه المعلومات من رجل صديق لصاحب الواحات قابله بباب الأخشيد سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م ، وهو لم يزر الواحات ولكنه استقى أخباراً عنها . من ذلك أنها تقع بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش . « وبها أرض شبيه .. وعيون حامضة »(٤) . وصاحب الواحات فى عام ٣٣٢ هـ /

---

(١) م. جـ ١ ص ٣٥٦ .
(٢) م. جـ ٢ ص ٢٦ .
(٣) شرحه ص ٢٦ . .
(٤) شرحه ، ص ٢٧ .
يذكر أنه حصل على أخبار الواحات من صديق لصاحب الواحات كان بباب الأخشيد محمد بن طغج عام ٣٣٢ هـ ٩٤٣ م فيقول : « سألته عن كثير من أخبار بلدهم وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم وكذلك كان فعلى مع غيره فى سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم » — م جـ ٢ ص ٢٧ .

٩٤٣ م كان رجلاً من لواته ، يركب فى ألوف من الناس .. خيلاً ونُجباً .. وفى أرضه خواص وعجائب وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ويحمل من أرضه الثمر والزبيب والأعناب .

الإســـــكندرية :

وقد زار الإسكندرية بعد عودته من مصر العليا إلى مقره فى الفسطاط ولكنه لم يسجل مشاهده(١) ، واكتفى بجمع أخبار عنها وأغلبها يدور حول تاريخها وحول بنائها وعجائبها كما يقول . وهى أخبار غير ممحصة تجنح إلى المبالغة والخيال فى كثير من المواضع . لكنه رأى منارة الإسكندرية فى إحدى زياراته عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م وهى من عجائب العالم ، ثم بحث باهتمام إنهيار جانب منها فى زلزال ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، وفى هذا يقول : « وتهدم فى شهر رمضان سنة ٣٤٤ هـ نحو من ثلاثين ذراعا من أعاليها بالزلزلة التى كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب فى ساعة واحدة على ما وردت علينا الأخبار المتواترة ونحن بفسطاط مصر وكانت عظيمة جدا مهولة .. أقامت نصف ساعة(٢) . ويبدو أنه شاهد أيضا المسلات فى رحلته المشار إليها وهى فى رأيه من الطلسمات التى اتخذها الإسكندر ، طول كل واحد منها ثمانون ذراعاً . كما علم أن جزيرة رودس وهى مقابلة للإسكندرية كانت دار صناعة الروم عندما كتب مصنفه « مروج الذهب » فى عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م « وبها تنشأ المراكب الحربية وفيها خلق كثير من الروم ومراكبهم تُغير على الإسكندرية فتأسر وتسبى »(٣) .

وما لبث أن توفى عام ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م بعد حياة حافلة بالعطاء وبفقده انقضى عصر المسعودى كما يسميه سارتون .

---

(١) من الواضح أنه زار الأسكندرية أكثر من مرة .

(٢) ت. ص ٥٩ـــ ٦٠ .

(٣) م. جـ ١ ص ٣٧١ .

وصفوة القول :

إن المسعودى هذا العالم الموسوعى شغف بالرحلة فى باكورة حياته فأمضى شطرا كبيرا من عمره سائحا وانتظمت جولاته رقعة واسعة من بلاد المسلمين وجزءا من بلاد غير المسلمين . وخلال رحلاته دوّن ما عاينه وصقل تجاربه وأضاف إلى معارفه مما أطلع عليه من كتابات وما نقله عن كتب السابقين . وقد ضمن كل ذلك كتبه التى فقدت إلا من كتابين انتهيا إلينا هما « كتاب مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » . ويخبرنا أن « كتاب مروج الذهب » فيه ما سبق أن بسطه وشرحه فى كتابيه المفقودين « أخبار الزمان » و « الأوسط » وأن « كتاب التنبيه والاشراف » أودعه لمعا مما دوّنه فى « كتاب مروج الذهب » ثم أضاف إليه موضوعات تفرد بها . وقد حاولنا قدر الاستطاعة إستخلاص ما فى هذين المصنفين من أدب جغرافى نظرى وواقعى. وعماد الأدب النظرى هو النقول عن الكتب المترجمة إلى العربية والكتب العربية الخالصة، ويدور حول الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والأزمنة وفصول السنة والرياح ومهابها والأرض وتشكلها وبحارها وأنهارها والنواحى والآفاق وتأثيرها فى السكان وحدود الأقاليم السبعة . ولعل ما قدمه من أدب جغرافى نظرى نقله عن كتاب وفلكيين عرب هو من بين أفضل إسهاماته فى هذا المجال . قدم ذلك وكأنه يحاول أن يثبت بالدليل أنه إذا كان هذا الأدب يونانى النشأة فقد أصبح بفضل علماء عرب أفذاذ عربى الهوية بعد أن أرسيت قواعد دولة الإسلام .

أما وصفه لرحلاته فقد حاكى فيه أسلوب الجاحظ وطريقة كتابته خاصة استطراداته الكثيرة وخروجه عن الموضوع بإضافة ما يمتع القارىء من حديث الأساطير وعجائب المخلوقات وغريب القصص . ومع ذلك ومهما قيل عن مثالبه فهذا لا يقلل من قيمة أدب رحلاته وما أنطوى عليه من حقائق وتجارب هى مصدر لأدب جغرافى واقعى يفيد مستقبلا فى بناء جغرافية الماضى .

لنقل فى الختام إن تراث المسعودى من الأدب الجغرافى بشقيه النظرى والواقعى تراث تنبع أصالته وأهميته من انتمائه إلى أزهى عصور الحضارة العربية وإلى اشتهار صاحبه بالثقافة العالية بفضل رحلاته وقراءاته الواسعة فجاء تعبيراً عن حضارة عصر ذهبى بكامله .

مـــن
الأشـــكال

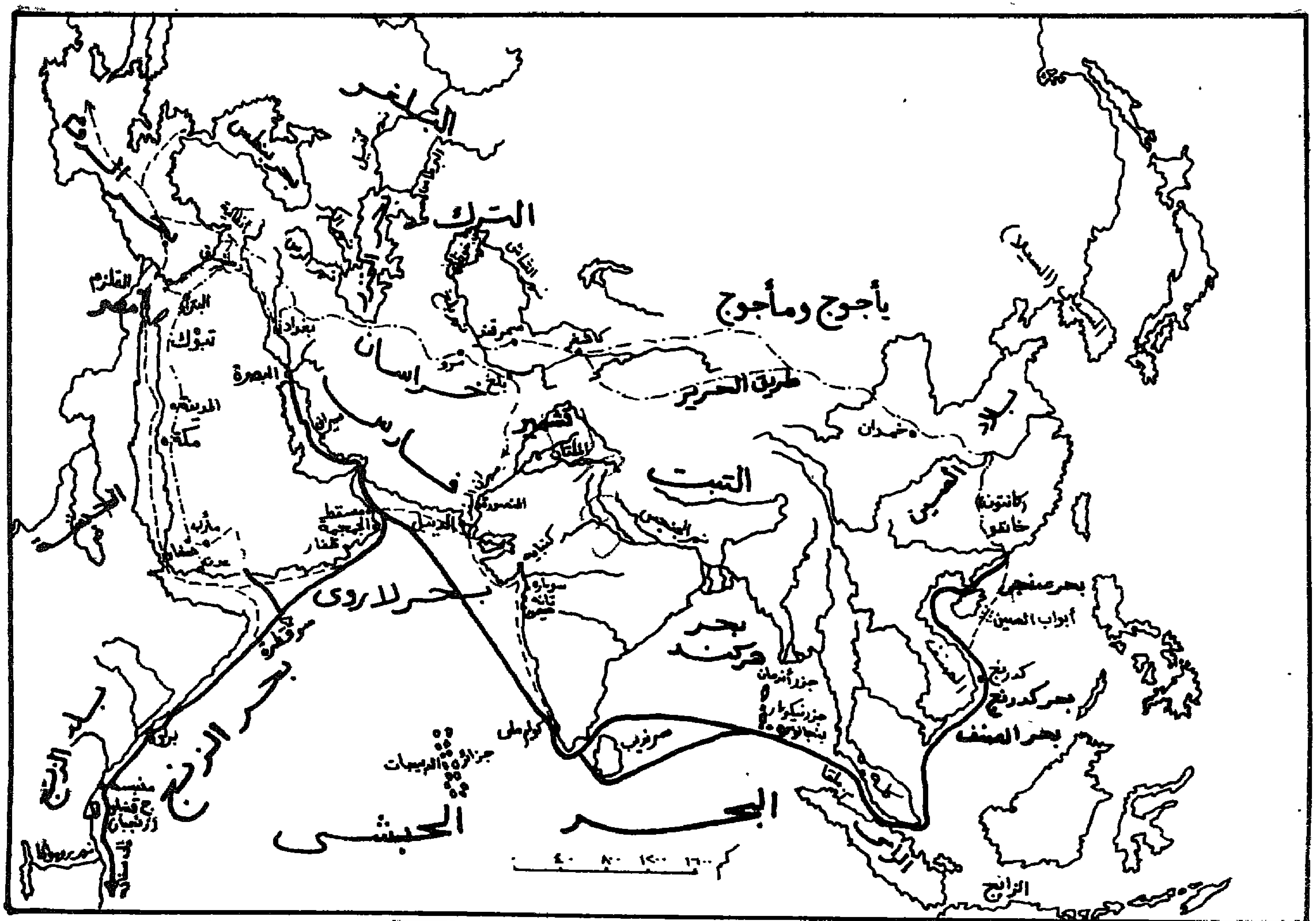

طرق بحرية رئيسية	طرق بحرية فرعية	طرق برية

شكل (١)

أهم طرق التجارة العربية فى القرنين الثالث والرابع هـ (٩ و ١٠ م)

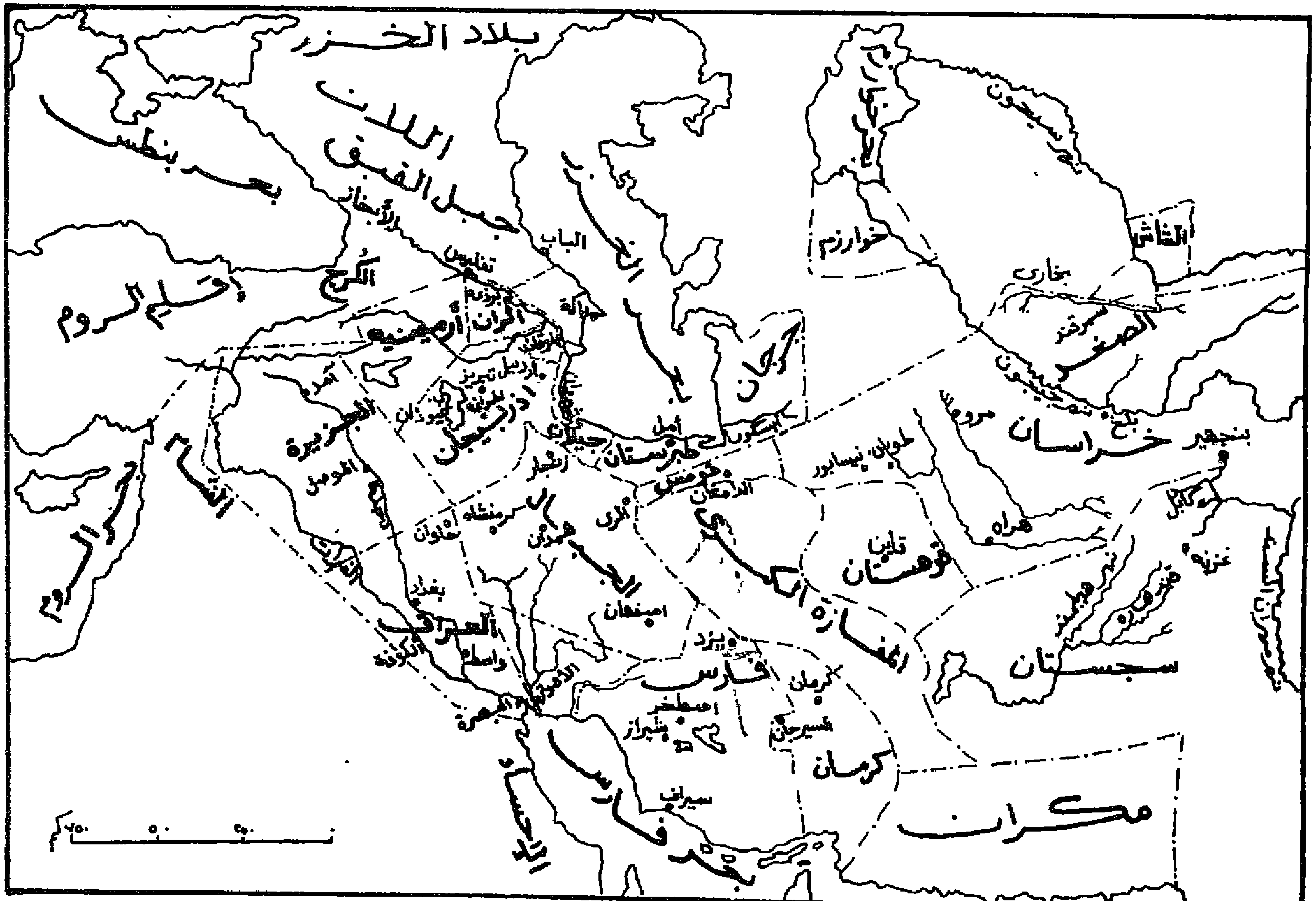

شكل رقم (٢)

الأقاليم الجنوبية الغربية من قارة آسيا على عهد الخلافة العباسية

ملاحـــــق

ملحق رقم (١)

مؤلفات المسعودى[1]

تنقسم هذه المؤلفات إلى عدة فئات وفقا للموضوع وهى كما يلى :

الفئة الأولى :

هى كتب الثقافة العامة فى إطار جغرافى تاريخى أو تاريخى فحسب وتضم مايلى من مصنفات :

١ ــ **كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان .**

كتب قبل عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م ويعالج بكثير من التفصيل والتوضيح ما أجمله المؤلف فى كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » . ويذكر أنه عرض فيه لأحداث التاريخ فى شكل حوليات . لكنه لم يصل الينا مثله فى ذلك مثل بقية الكتب التى ألفها المسعودى وفقدت إلا من كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » .

٢ ــ **كتاب راحة الأرواح .**

صدر قبل عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م ويمثل ملحقا للكتاب الفائت ويهتم بالحملات والحروب خاصة تلك التى خاضها ملوك مصر الأسطوريين والتى لم يكتب عنها فى « كتاب أخبار الزمان » .

٣ ــ **الكتاب الأوسط .**

يبدو أنه سار على نفس مخطط « أخبار الزمان » وتصميمه لأنه كان ملخصا له وإن انفرد بموضوعات كانت تحتاج إلى تفصيل .

٤ ــ **كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر .**

كتب فى عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م فى الفسطاط وروجع ونقح عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م وروجع للمرة الثانية فى عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م أى قبيل وفاة صاحبه بفترة قصيرة . وتستند شهرة المسعودى فى هذه

(١) اختلف كتاب السِّير فى عدد مصنفاته فبينما لا يذكر ابن النديم إلا اسماء خمسة منها يرفع ياقوت عددها إلى أحد عشر ثم يأتى حاجى خليفة فيرتفع بها إلى ١٦ مصنفا مما يؤكد أنهم لم يحاولوا النظر فى كتابيه « مروج الذهب والتنبيه والاشراف » فقد ضمنهما المسعودى أسماء ٣٤ كتابا .

الأيام على هذا الكتاب . راجع الملحق رقم ٢ وترجمة المؤلف فى بداية الدراسة .

٥ ــ كتاب وصل المجالس بجوامع الأخبار

هو عبارة عن مجموعة متنوعة من المعارف وخاصة ما يتصل منها بالأندلس . وهى أقرب للأدب منها للتاريخ .

٦ ــ كتاب الأخبار المسعودية .

كتاب يؤرخ لتاريخ بلاد العرب قبل الإسلام ثم يعرض لتاريخ الأندلس بطريقة منهجية .

٧ ــ كتاب مقاتل فرسان العجم .

صنف عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .

٨ ــ كتاب فنون المعارف وما جرى فى الدهور السوالف .

تم تصنيفه بعد عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .

٩ ــ كتاب ذخائر العلوم

تمت كتابته بعد عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م وهو أكثر تفصيلا من « كتاب التنبية والاشراف » بخصوص بعض القضايا والمسائل حول تاريخ البيزنطيين .

١٠ــ كتاب الاستذكار لما جرى فى سالف العصور .

ربما كان أشبه بمذكرات .

١١ــ كتاب تقلب الدول وتغير الآراء والملل .

ربما كان تأملات فيما جرى قبل أن يسقط شمال إفريقية فى أيدى الفاطميين .

١٢ــ كتاب التنبيه والاشراف .

صنف بين عامى ٣٤٤ــ٣٤٥ هـ / ٩٥٥ــ٩٥٦ م وهو آخر أعماله التى أتمها قبل وفاته . راجع محتويات هذا الكتاب فى الملحق رقم (٣) وتواريخ نشره فى العصر الحديث فى ترجمة المسعودى .

الفئة الثانية :

هى كتب تاريخية أيضا ولكنها مخصصة لتاريخ على بن أبى طالب رضى الله عنه وتاريخ آل البيت . وتضم الكتب التالية :

١٣ــ كتاب الزاهى .

نشر قبل عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م ويدرس على رضى الله عنه وخلافاته مع الرافضين لخلافته .

١٤ــ كتاب حدائق الأذهان فى أخبار أهل بيت النبى .

فى تاريخ على بن أبى طالب .

١٥ــ كتاب مزاهر الأخبار وطرائف الآثار .

كتاب يشبه السابق فى أنه يدرس تاريخ على بن أبى طالب وشيعته .

١٦ــ كتاب رسالة البيان .

صُنِّف قبل عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .

الفئة الثالثة :

تضم كتابين فى قضية الإمامه من وجهة نظر المذاهب الإسلامية المختلفة .

١٧ــ كتاب الاستخبار فى وصف الأقاويل .

١٨ــ كتاب الصفوة فى الإمامة .

الفئة الرابعة :

هى كتب تضم مقالات تنظر فى الهرطقة الدينية فى شكل رافض وجاد .

١٩ــ كتاب المقالات فى أصول الديانات .

كتب قبل ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م يناقش ويجادل الشيعة والخوارج والمعتزلة فى ما يذهبون إليه وكذلك يناقش مذاهب غير المسلمين من الصابئة واليهود والنصارى .

٢٠ــ كتاب الإبانة عن أصول الديانة .

٢١ــ كتاب الانتصار .

يرفض مذهب الخوارج وقد رجع إليه ياقوت فى أخبار الخوارج .

٢٢ــ كتاب الاسترجاع فى الكلام .

يحتوى على رفض للمعتقدات غير الإسلامية .

٢٣ــ كتاب الدعاوى .

ينفى فيه تقمص الأرواح .

٢٤ــ كتاب خزائن الدين وسر العالمين .

عالج آراء مختلف الفرق خاصة القرامطة

لفئة الخامسة :

كانت الفلسفة العامة من بين اهتمامات المسعودى كما لم يفتر اهتمامه بالفلسفة السياسية وعبر عن ذلك فى الكتب التالية :

٢٥ــ كتاب سر الحياة .

يتحدث عن الروح ويناقش معتقد الثالوث المقدس والمهدى المنتظر إلى غير ذلك من معتقدات .

٢٦ــ كتاب الزلف .

يعالج الروح إلى جانب دراسة موضوعات مثل صفات الملوك والكون والمرض والموسيقى والحيوانات .

٢٧ــ كتاب طب النفوس .

خصص أيضا لحديث الروح .

٢٨ــ كتاب النهى والكمال .

٢٩ــ كتاب الرؤوس السبعة فى السياسة الملوكية المدنية .

يعالج الفلسفة السياسية .

٣٠ــ كتاب نظم الجواهر فى تدبير الممالك .

الفئة السادسة :

تشتمل على مصنفين لهما طبيعة علمية :

٣١ــ المبادىء والتراكيب .

يناقش تأثير النيرين الشمس والقمر على الحياة .

٣٢ـ كتاب القضايا والتجارب .

يضم مشاهد رحلاته وملاحظاته أثنا ء تطوافه مشيرا إلى مختلف الظواهر وعوامل الطبيعة الثلاثة .

الفئة السابعة :

كتب فى الشريعة وأصولها :

٣٣ـ الواجب فى الفروض اللوازم .

يعبر فيه عن آرائه حول الخلاف المذهبى بين السنة والشيعة وتم تصنيفه قبل ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .

٣٤ـ كتاب نظم الأدلة فى أصول الملة .

تم تصنيفه هو الآخر قبل ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .

٣٥ـ كتاب نظم الأعلام فى أصول الأحكام .

يعرض لقواعد الشريعة عند الشافعّية والمالكية والحنفية .

٣٦ـ كتاب المسائل والعلل فى المذاهب والملل .

عن :

Ch. Pellat. Masudi, Encyclopeadia of Islam; Vol. VI, pp. 785-8T.

ملحق (٢)
محتويـــات
« كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر »

هذا مصنف كتبه عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م وراجعه ونقحه عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م ثم راجعه للمرة الثانية عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م . ويقع فى أربعة أجزاء تضم إجمالاً أكثر من ألف وسبعمائة صفحة . وعلى الرغم من شدة تنوع مواده وكثافتها إلا أنه لم يُبذل جهد فى تبويبها تبويبا سليما . فعنوان كل باب لا يكشف تماما عن فحواه ، وعلى الباحث أن ينقب فى كل صفحاته حتى يعثر على ضالته .

والكتاب فى إيجاز ينقسم إلى قسمين رئيسين ، يعرض القسم الأول منهما لتاريخ الأنبياء حتى نزول الوحى على محمد ﷺ . ثم يتبع ذلك مقالات فى حكمة الهنود وملوكهم وعاداتهم وكتبهم ، ثم يعالج بعض جوانب الجغرافية النظرية فيما يخص الأرض والبحار والأقاليم السبعة ومركز الأرض من الفلك والشمس ورأى بطلميوس فى صفة الأرض والأفلاك والأنهار والبحار والمد والجزر ومغاصات اللؤلؤ وصفات الماء المالح مقارنة بالماء العذب ، ويخلط ذلك بذكر هياكل الصابئة والمراتب الدينية لرجال النصرانية .

وينتقل بعد ذلك إلى ذكر ما شاهده وما علمه عن البحر الحبشى وبحار الزنج والروم وبنطس والخزر ولاروى وهركند والصنف والصين . ثم يرجع إلى التاريخ تاريخ الصين والترك يتبعه بحديث طويل عن مشاهداته وتجاربه فيما يتصل بالبحار وما فيها من العجائب وما حولها من الأمم وأخبار الأندلس ومعادن الطيب . ثم يعود مؤرخا فيذكر ملوك بابل والنبط وملوك فارس ثم ملوك اليونان والروم ، ثم يخص مصر بخبر طويل عما قرأه عنها وما شاهد من عجائب وآثار . وينتهى هذا القسم بفصول عن الزنوج والصقالبة وبلاد الغال وجيليقيا . ثم يتبع ذلك بتاريخ بلاد العرب القديم وعرض لمعتقدات الهند وفارس وآثارهما الدينية .

أما القسم الثانى فيعرض باختصار لشعوب البلاد غير الإسلامية يتبعه بعرض

مستفيض لتاريخ الإسلام منذ عهد النبوة إلى عهد الخليفة العباسى المطيع الذى بويع عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م متحدثا عن سيرة كل خليفة أو ملك . وهو لا يكف عن تنبيه القارىء إلى أن ما أورده فى كتابه هذا قليل من كثير سبق أن شرحه فى كتابيه « أخبار الزمان » و « الأوسط » .

ملحق (٣)

محتويـــات

« كتاب التنبيه والإشراف »

هذا كتاب صغير يضم نحوا من ٣٦٥ صفحة يمثل مختصرا لما جاء فى بعض كتبه وخاصة « كتاب مروج الذهب » . ويحدثنا المؤلف أنه كان فى سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م يشتغل بوضع النسخة الأولى فيه فى فسطاط مصر ثم زاد عليها وأصلحها فى سنة ٣٤٥ هـ ، وكان هذا الكتاب آخر مصنفاته فقد انتقل بعد فترة قصيرة من اتمام هذه النسخة الثانية إلى جوار ربه ودفن بالفسطاط .

يحوى الكتاب معلومات عن الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وأقسام الأزمنة وفصول السنة ومنازلها . ثم يعرض للرياح وما بها والأرض وشكلها ومساحتها والنواحى والآفاق وتأثيرها على السكان وحدود الأقاليم السبعة والعروض والأطوال ومصاب الأنهار .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها ثم ملوك الفرس على طبقاتهم والروم وأخبارهم وجوامع تاريخ العالم والأنبياء ومعرفة السنين القمرية والشمسية .

ويعالج القسم الأخير من الكتاب سيرة الرسول ﷺ وغزواته وسنى هجرته وسير الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم مع التعرض إلى ذكر من كان فى عهدهم من ملوك الروم والأفدية .

المصادر والمراجع

مصادر ومراجع

المصـــادر :

١ ــ ابن حوقل ــ صورة الأرض ــ بيروت ١٩٧٠ .

٢ ــ ابن خرداذبة ــ كتاب المسالك والممالك ــ ليدن ١٨٨٩ .

٣ ــ ابن خلدون ــ المقدمة ــ القاهرة (بدون تاريخ) .

٤ ــ ابن خلكان ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ــ القاهرة ١٨٥٨ .

٥ ــ ابن شاكر ــ فوات الوفيات ــ طبع بمصر (بدون تاريخ) .

٦ ــ ابن الفقيه ــ كتاب البلدان ــ ليدن ١٨٨٣ .

٧ ــ ابن النديم ــ الفهرست ــ طبع بمصر (بدون تاريخ) .

٨ ــ اخوان الصفا. ــ رسائل اخوان الصفا ــ خمسة مجلدات ــ بيروت ١٩٥٧ .

٩ ــ البكرى ــ جزيرة العرب (من كتاب الممالك والمسالك) ــ تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، الكويت ١٩٧٦ .

١٠ــ البيرونى ــ تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ــ لندن ــ ١٨٨٧ .

١١ــ الجاحظ ــ كتاب الحيوان ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ القاهرة ١٩٦٧ .

١٢ــ الجاحظ ــ كتاب التبصر بالتجارة ــ تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ــ بيروت ١٩٦٦ .

١٣ــ الدينورى ــ كتاب الأنواء ــ حيدرأباد ١٩٥٥ .

١٤ــ الرام هرمزى (برزج بن شهريار) ــ عجائب الهند ــ برّة وبحره وجزائره ــ نشره فون درليث ــ ليدن ١٨٨٣ .

١٥ــ سليمان التاجر وأبو زيد السيرافى ــ سلسلة التواريخ ــ طبع ونشر النص ــ المستشرق الفرنسى لانجل Langles ــ باريس ١٨١١ ثم نقله إلى الفرنسية م. رينو M. Reinaud ــ باريس ١٨٤٥ .

١٦ــ المسعودى ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ــ القاهرة ١٩٦٤

١٧ــ المسعودى ــ التنبيه والإشراف ــ مكتبة الهلال ــ بيروت ١٩٨١ .
١٨ــ المقدسى ــ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ــ ليدن ١٩٠٦ .
١٩ــ الهمدانى ــ صفة جزيرة العرب ــ تحقيق ابن بليهد ــ القاهرة ١٩٥٣ .
٢٠ــ ياقوت الحموى ــ معجم البلدان ــ خمسة أجزاء ــ بيروت ١٩٧٩ .
٢١ــ اليعقوبى ــ كتاب البلدان ــ ليدن ١٩٠٥ .

مراجع عربية :

١ ــ جلال مظهر ــ مآثر العرب على الحضارة الأوربية ــ القاهرة ١٩٦٠ .
٢ ــ جورجى زيدان ــ تاريخ التمدن الإسلامى ــ خمسة أجزاء ــ القاهرة ١٩٥٨ .
٣ ــ حسين فوزى ــ حديث السندباد القديم ــ القاهرة ١٩٤٧ .
٤ ــ ــ « المعارف الملاحية العربية فى العصور الوسطى » ــ من كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ــ الاهرة ١٩٧٠ .
٥ ــ حسين مؤنس ــ أطلس تاريخ الإسلام ــ القاهرة ١٩٨٦ .
٦ ــ ــ « الجغرافية عند المسلمين وتراث الهنود والفرس واليونان » ــ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ــ مدريد ١٩٥٩ــ١٩٦٠ .
٧ ــ زكى محمد حسن ــ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ــ القاهرة ١٩٤٥ .
٨ ــ سليمان حزين ــ « المشرق العربى بين الماضى والحاضر » المجلة الجغرافية العربية ــ الجمعية الجغرافية المصرية ــ العدد الأول ١٩٦٨ ــ ص ٤ــ٢٧ .
٩ ــ شوقى ضيف ــ الرحلات ــ القاهرة ١٩٨٧ .
١٠ــ طه الحاجرى ــ « تخريج نصوص أرسطالية فى كتاب الحيوان للجاحظ » . مجلة كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية العدد السادس والسابع ــ ١٩٥٢ــ١٩٥٣ .

١١ـــ عباس العقاد ـــ أثر العرب فى الحضارة الأوربية ـــ القاهرة ١٩٦٠ .
١٢ـــ عبد العزيز كامل ـــ جغرافية الإسلام فى افريقية ـــ القاهرة ١٩٦٠ .
١٣ـــ عبد الفتاح محمد وهيبه ـــ جغرافية الإنسان ـــ الإسكندرية ١٩٩٢
١٤ـــ ـــ الجغرافية التاريخية ـــ الإسكندرية ١٩٧٧ .
١٥ـــ ـــ « جغرافية العرب فى العصور الوسطى » ـــ الجمعية الجغرافية المصرية ـــ القاهرة ١٩٦٥ .
١٦ـــ ـــ « الجغرافية والثقافة الإسلامية » ـــ المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول ـــ الرياض ١٤٠٠ هـ/ ١٩٧٩ م نشر البحث عام ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م .
١٧ـــ على حسن الخربوطلى ـــ « المسعودى » سلسلة نوابغ الفكر العربى (٣٨) ـــ القاهرة ١٩٦٨ .
١٨ـــ قدرى حافظ طوقان ـــ العلوم عند العرب ـــ القاهرة ١٩٦٠ .
١٩ـــ نيقولا زيادة ـــ الجغرافية والرحلات عند العرب ـــ بيروت ١٩٦٢ .
٢٠ـــ ـــ الرحالة العرب ـــ الألف كتاب (٩٧) ـــ القاهرة ١٩٥٦ .

مراجع أجنبية مترجمة إلى العربية :

١ ـــ أحمد (نفيس) جهود المسلمين فى الجغرافية ـــ ترجمة فتحى عثمان مراجعة على أدهم ـــ سلسلة الألف كتاب (بدون تاريخ) .
٢ ـــ بارتولد (ف) تاريخ الحضارة الإسلامية ـــ ترجمة حمزة طاهر ـــ القاهرة ١٩٥٨ .
٣ ـــ بروكلمن (كارل) ـــ تاريخ الشعوب الإسلامية ـــ نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ـــ بيروت ١٩٦١ .
٤ ـــ حتى (فيليب) ـــ تاريخ العرب ـــ ترجمة محمد نافع ـــ المجلد الثانى ـــ القاهرة ١٩٥٢ .
٥ ـــ حورانى (جورج) ـــ العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ـــ ترجمة السيد يعقوب بكر ـــ القاهرة ١٩٥٨ .

٦ ــ سارتون (جورج) ــ تاريخ العلم ــ ترجمة لفيف من العلماء ــ القاهرة ١٩٥٧ــ١٩٦١ .

٧ ــ علوى (ضياء الدين) ــ الجغرافيا العربية ــ تعريب وتحقيق عبد إله يوسف الغنيم وطه محمد جاد ــ الكويت ١٠٤١ هـ / ١٩٨٠ م .

٨ ــ كراتشكوفسكى (أغناطيوس)ــ تاريخ الأدب الجغرافى ــ ترجمة صلاح عثمان هاشم ــ جزءآن ــ القاهرة ١٩٦٢ــ١٩٦٥ .

٩ ــ لسترانج (ج) ــ بلدان الخلافة الشرقية ــ ترجمه وأضاف إليه تعليقات مختلفة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ــ بغداد ١٩٥٤ .

١٠ــ متز (آدم) ــ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ــ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ــ القاهرة ١٩٥٧ .

١١ــ ميجيل (أندريه) ــ جغرافية الإسلام البشرية ــ الجزء الأول ــ السنة الثانية ــ ترجمة ابراهيم خورى ــ دمشق ١٩٨٢ .

١٢ــ ميلى (ألدو) ــ العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى ــ نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى ــ القاهرة ١٩٦٢ .

١٣ــ نالينو (كارلو) ــ محاضرات علم الفلك ــ تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى ــ بغداد (بدون تاريخ) .

المراجع الأجنبية :

1 - Ahmed, Maqbul, Travels of Abu'l Hasan, Ali B. Al Husayn al Mas'udi Islamic Culture, Vol. XXVIII, No. I, Jan. 1956.

2 - Baker, J.,L., A History of Geography and Exploration, London, 1948.

3 - Beazley, C.R., The Dawn of Modern Geography, 3 Vols. New York 1949.

4 - Dempier, W., Science in the Ancient World. Cambridge, 1929

5 - De la Ronciere, ch. Le Découverte de l'Afrique Au Moyen Age, Le Caire, 1925.

6 - Dreyer, J.L., Planetary Systems, Cambridge, 1906.

7 - Heyd, W. Histoire du Levant au Moyen Ages, 2 Vols, Leipzig et, Paris 1825.

8 - Holt-Jensen, A., Geography its History and Concepts, New Jersey, 1982.

9 - Huzayyin, S.A., Arabia and the Far East, Cairo, 1942.

10- Huzayyin, S.A., Some Arab contributions to Geography, Geog. Oct., 1932.

11- James, A.E. and Martin, G., All Possible Worlds, N.Y., 1981.

12- Kimble T., Geography in the Middle Ages, London, 1938.

13- Kramers, J.H., "Geography and Commerce". The Jegacy of Islam, (ed.), T. Arnold and A. Guillaume, Oxford, 1930.

14- Lelewel, J. Géographie du Moyen Age. 4 Vols, Bruxelles, 1850-57.

15- McEvedy C., The Penguin Atlas of Medieval History, Manchester, 1961.

16- Newton, A.P. Travel and Travellers of the Middle Ages, London, 1949.

17- Pellat, Ch., "Mas'udi", The Encyclopaedia of Islam, Vol. VI, Leiden, 1991.

18- Raisz, E. General Cartography, N.Y. 1958.

19- Reinand, M. Géographie d'Aboulfeda, T.I., Paris, 1948.

20- Schoy, G., The Geography of the Moslems of the Middle Ages, London, 1949.

21- Smith, D.E., History of Mathematics, Boston, 1923, Vol. I.

22- Spate, O., India and Pakistan, London, 1964.

23- Wright, J., Geographical Lore of the Crusades, N.Y., 1924.

المحتويـــات

تمهيد ٩ ــ ١٠

نظرة عامة ١١ ــ ٢٣

العرب قبل الإسلام وبعده ــ نقل الثقافات ــ الجغرافية الوصفية ــ التجارة وانتشار العرب بعد الإسلام ــ أدب الرحلات الذى تعرف إليه المسعودى ــ أنواع الرحلات .

سيرة المسعودى ٢٤ ــ ٢٨

القسم الأول ٢٩ ــ ٥٤

الأدب الجغرافى النظرى

عن المصادر اليونانية : الفلك ــ حول مركز الأرض من الفلك ــ حول شكل الأرض المسكون وغير المسكون ــ المسطحات المائية ــ الأقاليم السبعة ــ عن المصادر الهندية والفارسية ــ عن المصادر العربية ــ مفاهيم عربية : حكمة التكوير ــ قياس محيط الأرض ــ الأقليم الرابع ــ البحار ــ بعض المسائل الطبيعية ــ اختلاف قوى الأرضين ــ العوامل التى تحدد مواضع الاستقرار ــ تأثير المجال الحيوى فى حياة الناس وصفاتهم ــ تأثير المناخ على الإنسان.

القسم الثانى ٥٥ ــ ٩٤

الأدب الجغرافى الواقعى

(أدب الرحلات)

الرحلات المبكرة : البحار التى ركبها ــ جنوبى الجزيرة العربية ــ الجزر ــ إعصار التيفون فى بحر هركند ــ

بحار أخرى بعيدة وجزائر ـــ بحر الزنج ـــ بين السودان والزنج ـــ الهند والسند ـــ الهند وأهلها ـــ بلاد السند ـــ بلاد قشمير ـــ ثغرا الملتان والمنصورة ـــ ممالك هندية ـــ الصين وأهلها ـــ المسلمون فى الصين ـــ مدينة خمدان ـــ طريق الحرير ـــ بلاد التبت .

رحلات المرحلة الثانية : ممالك إسلامية ـــ أطمات وبزاة ـــ ممالك غير إسلامية ـــ من غريب الأمم ـــ من عجائب المخلوقات ـــ أمم وممالك أخرى حول بحر الخزر ـــ فى جورجان وخراسان وسجستان .

رحلات المرحلة الثالثة : العودة إلى بلاد الشام ـــ نزوله مصر ـــ محاورات ـــ من الأخبار المأثورة ـــ البجة ووادى العلاق والواحات ـــ الإسكندرية .

صفوة القول ٩٥
من الأشكال ٩٦ــ٩٨
ملاحق ٩٩ــ١٠٧
المصادر والمراجع ١٠٨ــ١١٢

مركز الدلتا للطباعة

٢٤ شارع الدلتا - اسبورتنج

تليفون : ٥٩٥١٩٢٣